أساطير اليونان

- ١ -

تأليف

دكتور عبد اللطيف أحمد على — دكتور محمد صقر خفاجة

كلية الآداب — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

اهداءات ٢٠٠١
المرحوم أ.د. زكى على
القاهرة

أساطير اليونان

- ١ -

تأليف

دكتور عبد اللطيف احمد علي — دكتور محمد صقر خفاجة

كليـــة الآداب — جامعة القاهرة

الملتزم بالتوزيع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - القاهرة

مقدمة

إن الأساطير التى نتناول دراستها فى هذا الكتاب يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع هى الخرافات البحتة (Myths) والأساطير (Sagas) والقصص الشعبى (Märchen) .

أما الخرافة البحتة فهى وليدة الخيال الذى يسبق حب الاستطلاع والفروض العلمية عند التفكير فى الظواهر الطبيعية وفى المعتقدات والشعائر الدينية ، فمثلا عندما فكر اليونان فى السبب الذى من أجله كانت تبدو لهم الشمس وكأنها تعبر السماء كل يوم من الشرق إلى الغرب ، تصوروا أنها سائق يسوق مجموعة من الجياد اللامعة عبر السماء التى تخيلوها فى صورة قبو منحن فوق الأرض المسطحة ؛ كما فسروا عودة الشمس إلى مقرها دون أن يراها أحد تفسيرات مختلفة أشهرها أنها كانت تبحر فى كأس هائل عبر نهر عظيم يحيط بالأرض سموه أوقيانوس (Oceanus) . وجدير بالذكر أن هذه الخرافات لم ترق عند الإغريق إلى مرتبة العقائد لأن الدين اليونانى كان خلوا من العقائد وكان يقوم على أداء بعض الطقوس المتوارثة التى لم يؤمنوا بها ولكنهم ظنوا أن أداءها كان يرضى الآلهة ؛ ومن المحتمل أن غالبيتهم ، و بخاصة فى العصور الأولى ، كانوا يعتقدون فى صدق

الخرافات ولكن لم يكن هناك ما يمنع أحدهم من عدم الاعتقاد فيها وتفسيرها تفسيرا رمزيا أو اعتبارها ضربا من الأوهام . فالإلحاد (asebeia) الذى كان جريمة يعاقب عليها فى أثينا مثلا لم يكن فى جوهره إلا إغفالاً للشعائر الدينية أو ترويجا لنظريات تنكر وجود بعض الآلهة وتهدم الأساس الذى تقوم عليه عبادات هذه الآلهة هدماً تاما .

أما الأساطير فتستند إلى أساس تاريخى وإن امتلأت أحيانا بالتفاصيل الخرافية ، وهى تصور ماوعته ذاكرة الشعب أو ما نسجه خيال شاعر حول حادث حقيقى كان له من الأهمية ما جعله يعلق بالأذهان صحيحاً أو محرفا . ومن هذا النوع من الأساطير قصة حرب « السبعة ضد طيبة » وحرب طروادة وقصة أسرة پلوپس (Pelops) ، فسقوط طيبة وحصار طروادة وتدميرها ثبت أنها حقائق مؤكدة كما أن المنازعات الدموية التى مزقت شمل أسرة أجا ممنونايست بالأمر المستحيل أو غير المحتمل ، لكن ذلك لا يحملنا على الاعتقاد بأن عدداً كبيراً من الآلهة اشتركوا فى مهاجمة طروادة أو الدفاع عنها أو أن أتريوس (Atreus) قدم لأخيه ثوأستيس(Thyestes) لحم أبنائه ليأكله .

أما القصص الشعبى فكان أقل انتشاراً من الخرافات والأساطير بين اليونان ومن الخطأ مقارنته بالحكايات (الحواديت) لأن هذه القصص

الشعبية لا تصور دائماً الجن والعفاريت وغير ذلك من الكائنات العجيبة، ولا تدور حول شخصيات خيالية وأحداث وهمية إنما كانت نتاجا للخيال في دور الطفولة ابتدعه مؤلفون غير معروفين وتناقلته الأفواه بل وانتقل من شعب إلى شعب رغم اختلاف اللغة، وتتميز القصص الشعبية من الخرافات والأساطير في أنها نشأت بقصد الترويح والتسلية ولعل أبرز خاصة لها هو تشابه بعض أحداثها عند الشعوب المختلفة .

ومع ذلك فقد تمتزج القصص الشعبية بالخرافات والأساطير في قصة واحدة وبخاصة إذا كانت طويلة متشعبة موغلة في القدم ، تعددت رواياتها على مر العصور، فمثلا قصة حرب طروادة لم تعد ، كما قلنا، أسطورة لأنها تصف حربا وقعت بالفعل بين الآخيين في بلاد اليونان وبين قوم من جنسهم كانوا يسكنون سواحل آسيا الصغرى . غير أن هذه الأسطورة كثيراً ما تتناول أعمال الآلهة التي تدخل في نطاق الخرافة كما تتضمن من وقت لآخر حادثة من القصص الشعبي ، ولكن رغم ذلك الامتزاج يجب ألا ننسى الفرق بين طبيعة هذه الأنواع الثلاثة حتى نفهمها فهماً صحيحاً.

ولقد تعددت الآراء في تفسير الأساطير منذ أقدم العصور(١) لكنها تشعبت وتعقدت في القرن الماضي وما زال الخلاف قائما بين العلماء حول

---

(١) إن أقدم تفسير للأساطير ينسب إلى العالم اليوناني يوهيميروس Euhemeros (أواخر القرن الرابع ق م) الذي قال بأن آلهة اليونان كانوا في الأصل أبطالا تجمع حولهم ضباب الزمن والخيال فحور أشكالهم وخلع عليهم صفة القداسة ورفعهم إلى مصاف الآلهة .

تفسيرها . وفى وسعنا أن نجمل آراءهم المختلفة فى أربع نظريات رئيسية :

نظرية التفسير الدينى ويرى أصحابها أن الأساطير هى فى الأصل مجموعة من القصص الدينية عرفتها الشعوب على مر الأيام وورد ذكرها عند كل شعب فى كتبه السماوية وهذا هو سبب التشابه بينها عند مختلف الشعوب ، فاسطورة ديوكاليون (Deucalion) تقابل قصة الطوفان عند البابليين وأعمال هيراكليس لاتختلف عن أعمال شمشون .

نظرية التفسير التاريخى وخلاصتها أن أبطال الأساطير كانوا فى الأصل بشرا حقيقيين عاشوا على الأرض وقاموا بأعمال عظيمة ثم نسج حولهم الخيال الشعبى على مر القرون قصصا رفعتهم إلى مصاف الآلهة أو انصاف الآلهة فمثلا أيولوس (Aeolus) إله الرياح وربهم الأعلى كان فى الأصل ملكا يحكم عدة جزر فى البحر التيرانى (المتاخم لسواحل إيطاليا الغربية) ، وعلّم مواطنيه كيف يستعملون الأشرعة و يستخدمون السفن و كيف يتنبئون بحالة الطقس واتجاه الريح من الظواهر الجوية ، وكادموس (Cadmus) ، الذى بذر أسنان التنين فى الأرض فخرج منها قوم مسلحون ، كان رجلا من فينيقيا هاجر إلى بلاد اليونان وأحضر معه فكرة استعمال الأبجدية اليونانية و بانتشار الكتابة نبعت حضارة اقترن ظهورها باستخدام الحديد وقيام الحرب وما يصحبها من قحط وشقاء مما جعل بعض شعرائهم ينددون

بهذه الحضارة و يعتبرونها مظهر تأخر وانهيار بالقياس إلى العصر الذهبى القديم ، عصر البساطة والسلم والرخاء .

نظرية التفسير الرمزى ومؤداها أن أساطير القدماء كانت تعبر بطريقة رمزية عن فكرة دينية أو خلقية أو فلسفية ثم فقدت مع مرور الزمن معناها الرمزى واحتفظت بالمعنى الحرفى ، فمثلا كرونوس (Cronus) إله الزمن الذى لا يفنى مع أنه نفنى كل شىء أوجده أصبح أبا يلتهم كل أبنائه .

النظرية الطبيعية التى تقول بأن الأساطير إنما نشأت لتفسير الظواهر الطبيعية التى يخافها الإنسان البدائى و يعجز عن تفسيرها كالصاعقة والبرق والرعد ومن ثم كان زيوس إله الصواعق و پوسيدون إله البحر وهيفايستوس إله البراكين .

و يتضح لنا من هذه التفسيرات ماللأساطير من أهمية بالغة لفهم تراث اليونان ومظاهر حضارتهم المختلفة فلا غناء عن دراستها لفهم التاريخ وتذوق الأدب وتفسير المعتقدات الدينية وتحليل النظريات الفلسفية فضلا عن ارتباطها الوثيق بالفن اليونانى والرومانى وتأثيرها فيه ، فمن العسير على من يغفلها أن يقرأ هيرودوت أو يتلو هوميروس أو يفهم مسرحيات أيسخولوس و سوفوكليس أو يفقة نظريات أفلاطون أو يقدر فن فيدياس ، أو أن

يعرف عادات وتقاليد اليونان والرومان معرفة صحيحة دون الإلمام بأساطير هذين الشعبين .

فلا عجب إذن أن أصبحت دراسة الأساطير علما مستقلا يعرف بعلم الميثولوجيا ، و يوجد الآن فى هذا العلم عدد كبير من المتخصصين فى الجامعات المختلفة ، ولقد أدرك فريق من المصريين فى السنوات الأخيرة ماله من أهمية فعكفوا على دراسة الأساطير وبخاصة الحكايات المصرية الشعبية (Folklore) التى أنشئوا لها مركزاً خاصاً بها .

القاهرة — مارس سنة ١٩٥٩ .

آلهة أوليمبوس

أفروديتى

(ڤينوس Venus)

كانت الأسرة الإلهية التى تخيلها اليونان تسكن فوق قمة جبل أوليمبوس (Olympus) تتألف من اثنى عشر عضواً : خمس ربات وسبعة أرباب[1] . وكانت أفروديتى (Aphroditê) ربة الحب والجمال ، فضلاً عن الخصب والتناسل . وقد عبدت فى كل أرجاء العالم الهلينى تقريباً ، وإن فاقت معابدها فى مدينتى بافوس (Paphos) وأماثوس (Amathus) بجزيرة قبرص (Cyprus) ، وفى جزيرة كيثيرا (Cythera) ، غيرها فى الشهرة . وكانت ربة لعوباً مخادعة ، شغوفة بالضحك ، تفتن بابتسامتها الحلوة من يقعون فى شباك حبها ، وتسخر منهم دون أن يظفروا منها بطائل . ولم يكن هناك سبيل إلى مقاومة إغراء هذه الربة التى كانت تسبى ألباب الحكماء أنفسهم . ويقول شعراء الأجيال التالية إن أفروديتى نشأت من زَبَد الموج ، وأن اسمها نفسه يعنى وليدة الزبد

(١) وقد تدمج بينهم الربة ديمتير Demeter ، فيصبح عددهم ثلاثة عشر . وعن ديمتر ، أنظر قصة إبنتها پرسيفونى تحت اسم الإله هاديس .

(aphros) . و يروون أن عضو إخصاب الإله أورانوس (Uranus) سقط في البحر المضطرب بعد أن ألقى به الإله كرونوس (Cronus) من الأرض فتقاذفته الأمواج مدة طويلة ، وأخيراً تجمع حوله زبد الموج ، ومن هذا الزبد نبتت أفروديتى . وقد حدث مولدها العجيب على مقربة من جزيرة كيثيرا ، بجنوب البلوبونيز (Peloponnesus) ، ثم حملتها الأمواج إلى قبرص ،حيث خرجت من الماء ، فلقبت باسم « البارزة من الأمواج » (Anadyomene) . ومنذ ذلك الحين ارتبطت هاتان الجزيرتان ارتباطاً مقدساً بأفروديتى التى كثيراً ما لقبت أيضاً « بالكيثيرية » و « القبرصية » ، وعند ما بلغت قبرص استقبلتها الهوراى (Horae)، ربات الفصول ، بنات ثميس (Themis) ، ربة القانون والنظام الذى يضبط العلاقات الطبيعية بين الجنسين ، وهى ربة كان من البديهى أن تستهجن منظر العرى التام ، الذى كثيراً ما ظهرت أفروديتى فيه . ولهذا لم تدمج أفروديتى فى زمرة آلهة أوليمبوس إلا بعد أن ألبستها الهوراى ثيابا لائقة ، وعصبن جبينها بأكاليل من الزهر ، وزينها بالحلى الذهبية . وعند ما وقعت عليها عيون الأرباب ، بهرهم جمالها الأخاذ ، فأمطروها جميعاً بالقبلات ، وأمسكوا بيدها ، وتمنى كل منهم أن يتخذها زوجة له . وليس من المستبعد أن تكون أفروديتى — وهى تقابل عشتر (Ishtar) أو عشتروت (Ashtaroth) عند الفينيقيين — قد وفدت إلى بلاد اليونان

من الشرق عن طريق قبرص . فقد جاء إلى أثينا من هذه الجزيرة أيضاً عشيقها أدونيس Adonis(وهو تموز Thammuz) الذى كان عشيق عشتر نفسها عند الشرقيين . لكن هناك من القرائن ما يشير إلى أنها اكتسبت بعض صفاتها من ربات العصر المينوى ، و بخاصة من أريادنى (Ariadne)، التى شغلت هى مكانتها واستوعبت عبادتها . وعلى أى حال فإن هوميروس يصفها بأنها ابنة زيوس (Zeus) ، رب الأرباب ، وديونى (Dione) ، وزوجة هفايستوس (Hephaestus) ، إله النار والبراكين والحدادة ، وأقبح الآلهة شكلا . و يوصف إله الحرب أريس (Arés) بأنه عشيقها ، وأحياناً زوجها . وحسب أفروديتى خطراً أن أينياس (Aeneas) ، جد الرومان ، الذى أسس أحفاده روما ، كان ينحدر من صلبها مباشرة ، فقد أنجبته من أنخيسيس (Anchisés) الطروادى . ولذا تظهر فى الإلياذة متشيعة للطرواديين ، مما يعزز أنها من أصل غير هلينى ، ولكنها لا تقوم بدور الربة المحاربة ، فقد كانت أضعف من أن تشترك فى القتال لأن ميدانها كان الحب وحده . ومع هذا فإن أفروديتى قد عبدت أحياناً فى اسبرطه وغيرها من الأماكن بوصفها ربة محاربة (Areia; Strateia) ، وهى صفة يرجح أنها ورثتها عن نماذجها الشرقية ، وقد تفسر أيضاً صلتها بآريس ، إله الحرب، وبخاصة فى الأساطير . لكن ينبغى ألا ننسى أنها كانت بوجه خاص

ربة التناسل والإخصاب (Genetyllis) (في اللاتينية Venus Genetrix) ومن ثم جاء تمثيلها للغريزة الجنسية وارتباطها بإيروس (Eros)، إله الحب، وهيميروس(Himeros) إله الشهوة ، اللذين يوصفان في الفن والأدب بأنهما ابناها . ومن هنا جاءت أيضاً رعايتها حتى لعاهرات المعابد في كورنثة ، حيث لقِّبت أحيانا بالخطية (Hetaira) أو العاهرة (Pornê) ، وكذلك اتصالها القوى في العبادة بهرميس (Hermés) من بين كبار آلهة أوليمپوس[١] ، ثم هيامها بأدونيس الفينيقي الأصل ، إله الخصب والنماء ، الذى تعذبت بحبه مثلما عذبت بحبها الآلهة والناس .

وقد عرفت أفروديتى الحب وهى لا تزال فى البحر صبية ، أى قبل قدومها إلى جبل أوليمپوس . ومن بين قصص الغرام التى نسجت حولها ، قصتها مع نيريتيس (Nerites) ، بن نيربوس (Nereus) الوحيد ، إله البحر القديم . وكان نيريتيس مخلوقاً صغيراً ، رائع الجمال ، يعيش فى الماء الصافى ، وسط الشعاب ، بقاع اليم . وطالما كانت أفروديتى تقيم فى البحر ، فقد ظلت تستمتع بقربه ، وتعيش معه كما يعيش العشاق . لكن سرعان ما حان الوقت لكى تغادر أفروديتى البحر تلبية لنداء أبيها ، وتنضم إلى جماعة الآلهة فوق جبل أوليمپوس . وعز على أفروديتى الفراق فعرضت على صاحبها أن يرافقها إلى أوليمپوس . ولكن نيريتيس آثر البقاء فى البحر

(١) عن هرما فروديتوس (Hermaphroditos) ، أنظر قصة هرميس أدناه .

إبم والديه وشقيقاته الحسين . وقد عرضت أفروديتى أن تمنحه جناحين ليطير بهما ، ولكنه رفض ذلك . وعندئذ مسخته الربة صدفة صغيرة من أصداف البحر ، واصطحبت بدلا منه إيروس ، إله الحب الصغير ، الذى وهبته الجناحين .

وكان لأفروديتى قصة حب أخرى مع بيجماليون (Pygmalion) ، الذى كان ملكا فى قبرص . ولا نعرف كيف كان سكان الجزيرة القدامى ، غير الإغريق ، ينطقون اسم هذا الملك ، أو ماذا كان معناه . ومن الجائز أن يكون للاسم صلة بكلمة بيجمايون أو بيجمايوس Pygmaios أى « القزم » . وعلى أى حال فقد روى أن هذا الملك وقع فى حب تمثال لأفروديتى ، مصنوع من العاج تظهر الربة فيه عارية وبلغ من افتتانه بالتمثال أنه أراد أن يتخذه زوجة له ، فحمله إلى فراشه . وفى رواية أخرى أن بيجماليون هو الذى صنع من العاج تمثال امرأة بارعة الجمال ، وهام به حبا . واستبد به اليأس وبرح به الهوى فابتهل إلى أفروديتى أن ترحم عذابه . وعندئذ دبت الحياة فى تمثال المرأة ، فتزوجها بيجماليون ، وأنجب منها بافوس الذى أسس أبنه مدينة بافوس ، حيث يوجد معبد أفروديتى .

وأما قصة عشقها لأدونيس التى راجت أيضاً فى أقطار الشرق كسوريا وقبرص وآسيا الصغرى ، فتقترن بشجرة المر ، وهو لبان طيب الرائحة عطر الأريج . وكانت ميرها (Myrrha) أو اسميرنا Smyrna — وهى أزمير —

إبنة أحد ملكين ، إما ثياس(Theias) ملك لبنان أو كينيراس(Cinyras) ملك قبرص ، الذى أسس مدينه بافوس . وقد أولعت ميرها بأبيها ولعاً شديداً وشغفت به حباً . ولقد قيل إن منشأ هذه العاطفة الأثيمة فى قلبها إنما يرجع إلى غضب إله الشمس أو غضب أفروديتى عليها لأن ميرها زعمت أن شعرها أجمل من شعر الربة . واستطاعت ميرها أن تخدع أباها أو استطاعت أن تثمله . وجامعته موهمة إياه أنها إحدى محظياته . وبعد أيام اكتشف أبوها على ضوء مسراج خافت من تكون رفيقتـه . وجن جنونه فاستل سيفه يريد أن يطيح برأسها ، ففرت منه مذعورة . وقد أثمر هذا الحب المحرم ثمرته . وغمر الأسى قلب ميرها واجتاحها شعور بالمذلة والخزى .وابتهلت إلى الآلهة أن بواروها عن الأنظار ، فلا يدعوها بين الأحياء ولا بين الموتى . وأشفق عليها رب من الأرباب لعله زيوس أولعلها أفروديتى — فقدعرفت بالربة الشفوق (Eleemon) —التى مسختها شجرة لا تبكى دماً بل تنز لباناً كالعطر رائحته أو كالبخور، وهو أدونيس. ذلك أن أدونيس عشيق أفروديتى قد ولد من لحاء شجر المر . وكان أدونيس جميلا فاتنا ، بلغ من جماله وفتنته أن أفروديتى أخفته بعد مولده فى صندوق وعهدت به إلى پرسيفونى (Persephoné) ، ربة العالم السفلى، لتحفظه وديعة عندها . غير أن پرسيفونى فتحت الصندوق ورأت الغلام الجميل فتملكتها الرغبة

فى ألا ترده إلى صاحبته . وثار بين الربتين نزاع أحيل على زيوس للفصل فيه . وقضى زيوس بأن يترك أدونيس وشأنه ثلثاً من السنة ، وأن يبقى مع برسيفونى الثلث الثانى ، وتحتفظ به أفروديتى بقية السنة . وأما عن مصرع أدونيس ، وانتقاله إلى برسيفونى فى عالم الموتى أربعة أشهر من كل عام ، فإن القصة الرائجة تقول إن خنزيرا بريا هو الذى جرحه جرحا مميتاً بينما كان يلهو بالصيد . وقد سال دم أدونيس وروى الأرض فأنبتت مكانه الأنيمون ، وهو زهر فاقع الحمرة ، وفاض نهر أدونيس فى لبنان بالدماء القانية . ومن المعتقد أن أرتميس ، ربة الصيد ، أو أريس هو لذى أطلق الخنزير البرى على الفتى الفاتن ليفتك به . وقد حزنت عليه أفروديتى حزناً شديداً ، واكتوى قلبها بالشوق إليه ، وبكته بكاء مراً قبل أن تحظى بقربه أو تستمتع بهواه . وفى الحق أن الأعياد التى كان الناس يتذاكرون فيها حبها المكلوم ، إنما أنشئت تحايد ذكرى اليوم الذى فارقها فيه حبيبها الفتان . فلقد صرعه الخنزير فانطرح أرضاً ينزف الدم من جسمه بغزارة ، بينما وقفت أفروديتى بجانبه مشدوهة ملتاعة تجهش بالبكاء . ولقد حاولت عبثاً أن تستبقيه . وفى اليوم التالى حلق أدونيس فى الفضاء . وقد درجت النساء على تقديم القرابين له فى صورة حدائق صغيرة يانعة (kêpoi) . وفى الشرق كان هناك بين النساء من منحن أجسادهن للغرباء فى رحاب المعابد . وأما اللواتى لم يسترخصن أجسادهن

فلكن على الأقل يهبن شعرهن قربانا لأدونيس الإله .

هذه القصص التي قصصناها عن ربة الحب الكبرى كان مسرحها سوريا أو قبرص . وأما القصة التالية فقد جرت في منطقة طروادة ، على مقربة من الدردنيل ، بإقليم آسيا الصغرى . لقد كانت هناك ثلاث إلاهات ليس لربة الجمال سلطان عليهن : أثينه وأرتميس وهستيا ، وهن العذارى الثلاث اللائي لم يتزوجن أبداً . وأما سائر الآلهة والآلهات الأخريات فقد أذعنوا لسلطانها ورضخوا لإغرائها . ولم يسلم زيوس نفسه من كيدها ، إذ أشعلت نار الحبَ في قلبه ، فشغف بنساء من البشر وعزف عن زوجته الشرعية هيرا ، ابنة كرونوس ورهيا . ولهذا كاد لها زيوس فحملها على أن تقع بدورها في حب الراعي أنخيسيس (Anchises) الذي كان يهش على غنمه فوق سفوح جبل إيدا (Ida) على مقربة من طروادة . وقد حبت الآلهة هذا الراعي بجمال لا يقل عن جمالهم . وأبصرته أفروديتي فسباها حسنه وفتنتها وسامته فمرق حبه في قلبها مرور السهم . وأسرعت الربة خطاها عائدة إلى قبرص ودلفت إلى معبدها في بافوس ، وأوصدت أبوابه . وتبعتها ربات الرشاقة والبهاء (Charites) ، وغسلنها بالماء الزلال ومسحن جسمها البض بالزيت الخالد الذي يعاق شذاه بالآلهة ، ثم ألبسنها حلة زاهية وزينها بحلى من الذهب . وفي الحق أن أفروديتي قد عرفت بالربة الذهبية

(Chrysê) . ولم تلبث أن عادت أدراجها إلى طروادة ، واتجهت إلى جبل إيدا ، متلهفة على لقاء الحبيب .

وشقت أفروديتى طريقها إلى حظائر الغنم عبر الجبال وتبعتها ذئاب رمادية اللون ، وأسود ودببة وفهود لا يرويها إلا الولغ فى دم الغزلان . وابتهجت الربة لمرأى هذه الوحوش ، وسكبت فى قلوبها رحيق الحب ، فانتشت وهزت ذيولها طرباً ، ثم استلقت تحت ظلال الغاب أزواجا أزواجا ، كل ذكر يلاطف أنثاه . ودخلت أفروديتى خيمة أنخيسيس ووجدت الراعى وحده يروح ويغدو عازفاً بمزماره . ووقفت الربة أمامه وقد تمثلت فى صورة فتاة بارعة الحسن ممشوقة القد تذوب رقة ودلالا . ورآها أنخيسيس فطاش صوابه وسال لعابه . وقد فتنه قوامها الفارع ورداؤها الفاخر . فقد كان هذا الرداء فى حمرة اللهب الذى يخطف البصر . وتلألأ نهداها فبدا ناصعين كأنهما غسلا بضياء القمر . وحياها أنخيسيس ورحب بمقدمها وصدق حدسه فى أنها ربة فخاطبها فى رهبة ونذر لها معبداً وقرابين، وسألها أن تباركه وذريته . ولكن أفروديتى كذبت عليه زاعمة أنها أميرة فريجية ، تتكلم لغة الطرواديين . وادعت أن الإله هرميس قد حملها من بين رفيقات أرتميس وحور ياتها اللائى كانت ترقص معهن إلى جبل إيدا مجتازاً بها فضاء فريجيا ، وأن رسول الآلهة أحضرها لتكون زوجة لأنخيسيس .

غير أنها ناشدت الراعى أن لا يمسها حتى يراها والداه وأخوته ، وحتى تبعث أيضاً إلى والديها برسالة عن صداقها قبل إتمام الزفاف .

بهذه الكلمات ألهبت الربة مشاعر الراعى وأثارت رغبته . ولم يسعه إلا أن يقول « إذا كنت حقاً فتاة من الإنس قدر لك أن تكونى زوجتى فان يصدنى عنك إله أو بشر . ولئن شاء أبوللون نفسه أن يردينى بسهمه ، فما أتمنى إلا أن أستمتع بحبك فوراً ، وأموت بعد لحظة . وأقبل عليها وأمسك بيدها فتبعته إلى فراشه . وهى تتلفت وراءها فى قلق كأنها تفكر فى التراجع ولم تلبث أن نكست عينيها إلى الأرض فى إستحياء . وكان المضجع مفروشاً بجلود الدببة والأسود التى صادها أنخيسيس . وهكذا شاءت إرادة الآلهة أن يضاجع بشرفان ربة خالدة دون أن يدرى من هى . ولما حان ميعاد إياب الرعاة الآخرين ، أيقظت أفروديتى عشيقها النائم . وتبدت له فى صورتها الحقيقية ، وأرتاع أنخيسيس عند ما رأى الربة ، وأشاح عنها وجهه وأخفاه . وتوسل إليها أن تنقذه . فليس فى وسع إنسان أن يبقى سليماً معافى فى بقية حياته إذا ضمه وربة فراش واحد .

ويروى أيضاً أن أفروديتى تنبأت لأبنها الذى أنجبته من أنخيسيس ولأحفاده بالخير العميم . ولم يكن هذا الإبن سوى أينياس جد الرومان ومؤسس دولتهم . وقد ندمت الربة على أنها وهبت نفسها لبشر . غير أنها طالبت

أنخيسيس ألا يبوح لأحد بأنها أم إبنه . وأن يزعم أنه ابن إحدى الحوريات . وأنذرته إن هو أفشى سر علاقته بها ، لينزلن به زيوس صاعقته : ويروى أن أنخيسيس نقض وعده ؛ وتباهى بين خلانه بصلته بأفروديتى فأصابته صاعقة زيوس بالعرج ، وإن كان ثمة رواية أخرى تقول إنه عوقب بالعمى لأنه رأى الربة عارية ، فأطلقت عليه نحلا وخز عينيه . وهكذا انتقمت لنفسها أفروديتى التى وصفت أحياناً « بالربة الحالكة »(Skotia) أو « السوداء » (Melaina) ، إما لأن العشاق يحبون الظلام ، أو لاقترانها بربات الغضب والانتقام (Erinyes) . وفى الحق إنها وصفت أيضاً بقاتلة الرجال (Androphonos) ، وحافرة المقابر (Tymborychos) أو الجالسة عليها (Epitymbidia) .

على أن اسم هذه الربة الذى اشتهرت به لم يكن هو الوحيد الذى حملته . فقد حملت أفروديتى أيضاً اسم ديونى ، زوجة زيوس ، التى ورد فى هوميروس أنها أمها . وهذا الإسم يعنى « ربة السماء الصحو » . وقد وصفت ديونى أيضاً بأنها « ربة الماء » . وقد عبدت ديونى فى بلدة دودونا (Dodona) — أشهر مركز لنبوءة زيوس — إلى جانب زوجها بوصفه « ربا للينابيع » ، فأصبحت هى الأخرى مثله « ربة للينابيع » . ويذهب الشاعر هسيودوس إلى أن أفروديتى كانت إحدى بنات أوقيانوس

فلا عجب أن ارتبطت ربة الجمال بالماء . ولم تظهر آياتها فى البر فقط بل فى البحر كذلك . فكانت إذا تحركت سار الجمال فى ركابها وانتشرت حولها هالة من النور الباهر ، وازدان أديم الأرض بأجمل الأزهار. فإذا ساقت عجلتها الطائرة التى يجرها البجع فوق البحر ، ولت الرياح الإدبار وانقشع الغمام وتضاحكت الأمواج . ولذلك عبدت أفروديتى بوصفها ربة للبحر (Pelagia) الذى ولدت منه ، وربة للملاحة (Euploia) .

وكان من بين ألقابها الشائعة لقب « السماوية » (Urania) وهو لقب حملته كثير من ربات الشرق ، وقد ينم عن أصلها الشرقى ، أو قد يفسر الرواية القائلة بأنها كانت ابنة أورانوس إله السماء القديم ، وإن كان البعض يرى فيه معنى « ربة الحب السماوى » أو الأفلاطونى . ويرتبط بهذا اللقب لقب آخر بمعنى « ربة الشعب » (Pandemos) بجميع طبقاته، وهو يمثل فى الواقع أقوى ما أصابته أفروديتى من نجاح سياسى ، وبخاصة فى أثينا . وقد كان هناك شهر يحمل اسمها فى تقاويم كثير من الدويلات اليونانية . وكان كوكبها هو الزُهرة (Venus)، وشجرتها الآس ، وطائرها اليمامة ؛ وأما قربانها فكان الخنزير البرّى الذى صرع عشيقها أدونيس وأدمى قلبها حزناً عليه ، فشاطرتها حزنها كل النساء . وكان أبدع تمثال عرفه العالم هو تمثالها الذى نحته المثال المشهور براكسيتليس (Praxiteles)

فى منتصف القرن الرابع ق . م . وكان الناس يأتون من كل مكان إلى مدينة كنيدوس (Cnidus) بآسيا الصغرى للتمتع بمشاهدته . وهو يمثل الربة وهى تضع ثيابها التى تجردت منها فوق جرّة الماء قبل الاستحمام . وكان هذا التمثال هو النموذج الذى صنعت على غراره كثير من تماثيل أفروديتى فى العصر الهلينستى (اليونانى المتأخر) والعصر الرومانى . وكان من أشهرها ما كشف فى جزيرة ميلوس (Melos) بالبحر الإيجى ويعرف الآن باسم « ڤينوس ميلوس » .

أرتميس

(ديانا Diana)

كانت ربة مينوية الأصل ، وتظهر فى أشعار هوميروس كأبنة لزيوس وليتو (Leto) ، وشقيقة توأم لأبوللون . وقد سبقته إلى الدنيا بيوم واحد، لأنها ولدت فى اليوم السادس من الشهر بينما ولد هو فى اليوم السابع . ومع هذا فقد عاونت أمها فى توليده . ولم تتزوج أرتميس (Artemis) أبداً فظلت كأثينه وهستيا، ربة عذراء . ولما كانت ربة المناطق غير المزروعة كالجبال والغابات والمروج البرية حيث تكثر الوحوش كالأسود والدببة والحيوانات غير المستأنسة كالظباء والأيائل ، فقد اشتهرت أرتميس التى انتشرت عبادتها انتشاراً واسعا ، بأنها ربة الصيد . وفى هذه المناطق كانت الربة تمضى الوقت لاهية فى القنص والرقص مع رفيقاتها العذارى من الحوريات والعرائس . وشد ما كان يبتهج قلبها برقصات فتيات قرية كرياى(Caryae)، الشهيرة بأشجار الجوز ، هؤلاء الفتيات (Caryatides) اللائى كن يرقصن تحت ضوء القمر فى نشوة بالغة رقصاً دائريا حاملات فوق رءوسهن سلالا من البوص ، كأنهن أشجار راقصة . فلا عجب أن لقبت أرتميس باسم هذه القرية (Caryatis) . ولقد ذكرنا أنها كانت ربة عذراء وأن

حو يحبانها كن عذارى مثلها . ألا ويل للرجل الذى يحاول أن يراها خلسة وهى تستحم فى جدول أو ينبوع ! فعندما اجترأ سيپرو يتيس (Siproites) الكريتى على رؤيتها وهى عارية ، حولته الربة إلى إمرأة ! وكثير منا يعرفون قصة أكتايون (Actaeon)، وهى قصة مفجعة ، رو يت بأشكال مختلفة . وأكثر هذه الروايات تداولا ما تقول إن أكتايون الذى رباه خيرون(Chiron) ودربه على الصيد ،فاجأ أرتميس مرةوهى تستحم فاقتصت منه الربة بأن مسخته أيلا ، وهو حيوان محبب لدى أرتميس ، ولكنه راح ضحيتها فى هذه المرة . ذلك أن كلاب أكتايون انقضت على سيدها بعد أن صار أيلا ومرقته إربا . واضطلعت أمه أوتونوى (Autonoe) بمهمة جمع عظامه المتناثرة ، وهى مهمه محزنة ثقيلة على قلوب الأمهات . وفى رواية أقدم أن أكتايون تنكّر فى جلد الأيل ، وتودد إلى أرتميس فى هذه الصورة ، وحاول اغتصابها ، فلقى جزاءه الرهيب .

وثمة قصة محزنة أخرى عن أرتميس كانت بطلتها كالسيتو (Callisto) وهى إحدى رفيقاتها . وهذا الاسم مشتق من صفة بمعنى « الأجمل » أو « المتناهية فى الجمال » (Kalliste) ، وعرفت به أيضا أرتميس نفسها. ولقد روى أن كاليستو كانت حورية صائدة ترتدى نفس الزى الذى ترتديه الربة . ويختلف اسم أبيها باختلاف الروايات ، كما يختلف اسمها نفسه

من قصة لأخرى . وعلى أى حال فإن زيوس أغواها بعد أن تمثل لها فى صورة أرتميس نفسها وفقا لما ورد عند كاتب هزلى . وقد كان لأرتميس فى القصص القديمة شكل الدبة ، وجامع زيوس كاليستو وهو فى شكل الدب . واكتشفت الربة ذات يوم وهى تستحم فى ينبوع أن إحدى رفيقاتها حامل ، فمسختها فى سورة غضبها دبة . ومع هذا فقد ظهرت كاليستو فى السماء آخر الأمر كنجمة تحمل اسم « الدب الأكبر » ، بعد ماأنجبت من زيوس إبنا أصبح الجد الأول لسكان أركاديا (Arcadia) فى البلوبونيز . ويرتبط اسمه أركاس (Arcas) بلفظ أركتوس (Arktos) أى الدب . وقيل أيضا إن كاليستو حملت توأمين : أركاس وبان ، إله غابات أركاديا الذى كان نصفه الأسفل فى شكل جدى، وتتفق طبيعة أركاديا المقفرة وطباع سكانها البدائية مع أمثال هؤلاء الآلهة والأجداد كل الاتفاق .

وتقترن قصة بريتومارتيس (Britomartis) أيضا بالربة أرتميس . وبهذا الاسم كان سكان كريت يبتهلون إلى عذراء إلاهية حبيبة إلى قلب أرتميس . ولعل اسم بريتومارتيس يعنى فى الكريتية «العذراء الحلوة » . وقد عرفت أيضاً فى أجزاء أخرى من جزيرة كريت الكبيرة باسم « ربة جبل دكتى » (Dictynna) ، وهو اسم يتضمن معنى الشبكة (diktys) وفى الواقع إن الشبكة لها دور فى القصة . فقد روى أن بريتومارتيس كانت إبنة أنجبها زيوس فى كريت . ولما شبت عن الطوق أصبحت حورية تهوى الصيد . وقد تدله مينوس (Minos) ، بن زيوس

فى حبها ، فتعقبها فى جبال الجزيرة . وأخفت الحورية نفسها تارة وسط غابات البلوط ، وتارة أخرى فى المروج المنبسطة . وظل مينوس يطاردها تسعة أشهر دون أن يكل من المطاردة . وكاد مرة أن يظفر بها عند سفح منحدر على جبل دكتى (Dicte) عندما اشتبك ثوبها فى فرع شجرة من أشجار الآس . ولكنها قفزت من أعلى الشجرة إلى البحر حيث تلقتها شبكة أحد الصيادين . وعندئذ رفعتها أرتميس إلى مصاف الربات . وأما سكان جزيرة أيجينا (Aegina) فيروون أن بريتومارتيس جاءت إلى جزيرتهم فى زورق صياد يدعى أندروميديس (Andromedes)، وأن هذا الصياد حاول اغتصابها . ولكن الربة اختفت فى تلك الغابة التى كانت تكسو حينئذ الجبل الذى يقوم عنده معبدها . على أنها لم تعرف فى أيجينا باسم بريتومارتيس ، بل باسم أفيّا (Aphaia) لأنها اختفت فجأة عن الأنظار (aphanés) . ولا ريب فى أن هذا التفسير غير صحيح ، لأنه ليس ثمة ارتباط بين الكلمتين . غير أن معبد أفيّا ما تزال أطلاله قائمة فوق سفح جبل أيجينا الجنوبى .

وكانت أرتميس فوق ذلك كله تحمى مواليد الحيوان والإنس وتقوم بحضانتهم وتعنى بصحتهم . ولعل ذلك يفسر كيف أصبحت تعين النساء فى ساعة الوضع ، وأصبحت نظراً لأهميتها عند الأمهات ، ربة مدنية أى

من ربات المدينة ، مثلها فى ذلك مثل إيليثيا (Eileithyia) ، الربة القابلة . ومن ثم جاء الخلط بين أرتميس وهكاتى (Hecate)[1] ، التى كانت هى الأخرى تقوم بتربية الأطفال . وكذلك الخلط بين سيليني (Selene) ، ربة القمر ، وبينها بوصفها شقيقة أبوللون الذى خلط بينه وبين هليوس (Helios) ، إله الشمس . ومع حرصها على الصغار ورعايتها لهم إلا أنها حالت دون إبحار الأسطول الإغريقى إلى طروادة قبل أن يضحى لها بصبية عذراء . ويكشف هذا السلوك عن جانب مناقض لصفاتها المعروفة ، ولا يعدو أن يكون إحدى المتناقضات التى تزخر بها الأساطير ولا نعرف لها تفسيرا . ولما كانت أرتميس ماهرة ، كأخيها أبوللون ، فى رمى السهام ، فقد كان يعزى إليها موت النساء فجأة دون ألم .

(١) كانت هكاتى فى الواقع ربة الليالى المظلمة التى يحتجب فيها القمر . ومن ثم نشأ ارتباطها بكل ما يجرى تحت جنح الظلام . فكانت ربة مفترق الطرق حيث تكثر الأشباح ، وتوضع أعمال السحر الذى يقصد بها إيذاء الغير . وفى الحق أن الإغريق تصوروها كعفريت يظهر لعابرى السبيل ويثير فى نفوسهم الخوف . ولهذا اقترنت هكاتى بالرقى والسحر الأسود ، فكان الناس يبتهلون إليها أن تذهب حتى تذهب معها الأرواح الشريرة التى تسكن مكاناً ما أو تتقمص جسد إنسان ، ويسألونها أن تستجيب رقية سحرية لإهلاك شخص معين . وكانت فى الوقت عينه تضطلع ، مثل أبوللون ، بمهمة التطهير ، ولها قدرة على الوقاية من السوء . فكانت تماثيلها توضع كتماثيله عند أبواب المنازل لتدرأ عن أهلها الشر والمكاره . وترسم هيكاتى أحياناً وإلى جانبها كلاب نابحة .

أثينه

(مينرڤا Minerva)

وتسمى أيضا بلاّس أثينه (Pallas Athene) [1]، وكانت فى الأصل ربة مينوية ، و بعدئذ ربة موكينية ؛ واسمها نفسه ينتهى مثل موكينى

---

(١) اختلفت الأساطير فى أصل اللقب بلاس (Pallas) الذى يقرن عادة باسم الربة آثينه (Athena) والـكلمة فى اليونانية تدل على مذكر أو مؤنث، فقد تعنى شاباً قوياً أو فتاة قوية (virago) . وفى أسطورة أن والد آثينه لم يكن زيوس بل كان عملاقاً على هيئة الجدى يدعى بلاس . وقد حاول هذا العملاق اغتصابها ولـكنها تغلبت عليه وانتزعت جلده وصنعت منه درعها ، هذا إذا لم يكن درعها (aegis) فى الأصل هو جلد ميدوسا (Medusa) التى سلختها آثينه بعد أن فصـــل پرسيوس (Perseus) رأسها عن جسدها . وكانت ميدوسا وحشا (Gorgon) شوهاء الوجـــه ، تنبت فى رأسها الأفاعى بدلا من الشعر ، وتتمنطق بحزام من أسنان الخنزير البرى ، ولها جناحان ضخمان، وعينان تمسخان من تقعان عليه حجرا . ولهذا كان درع آثينه يزين فى وسطه برأس ميدوسا ، كما كانت الربة نفسها ترسم قديما بجناحين . وفى أسطورة أخرى أن آثينه بعد أن أنجبها زيوس من رأسه على ضفاف تريتون (Triton) ، تولى هذا الإله — النهر تربيتها . وكان لتريتون ابنة تدعى بلاس . وحدث ذات مرة أن كانت آثينه تلعب مع بلاس لعبة الحرب . وعندما همت الأخيرة بإطلاق حربتها ، خشى زيوس أن تصاب ابنته فى مقتل فدفع بدرعه المخيف (aegis) أمامها حتى يقيها منه . وقد حول ذلك انتباه بلاس فأصابتها آثينه بحربتها إصابة مميتة. وقد حزنت آثينه على ربيبتها حزناً شديداً فحملت اسمها وصنعت لها تمثالا ، وهو البلاديون (Palladion) لتخليد ذكراها . وبهـــذا التمثال كان يرتهن حظ طروادة لأن استيلاء أوديسيوس وديوميديس عليه كان نذيرا بسقوطها فى يد الآخيين (الاغريق) .

(Mykenê) ، بنهاية غير مألوفة فى اليونانية . وقد شيد أشهر معبد لها على الأكروبول بأثينا مكان قصر موكينى قديم ،يعرف فى الإلياذه باسم بيت إرخثيوس (Erechtheus) . وقد تظهر أحيانا ، مثل ربات كريت ، فى صورة طائر و بخاصة البومة التى اقترنت بها فى العبادة خلال العصر التاريخى ولهذا وصفت آثينه « بذات العينين المشابهتين لعين البومة » أو البراقتين أو الخضراوين خضرة الزيتون أو ماء البحر (glaukopis) . وتشبه تماثيلها الغربية ، وهى تماثيل إناث مسلحات ، الربة الموكينية المسلحة بالدرع . ومن هذا كله نستخلص أنها كانت الربة الحارسة لملوك كريت وموكيناى بالذات . ومن المرجح أن رعاياهم قد عبدوها وأخلصوا لها العبادة. وعلى أى حال فقد ظلت تحتل مكانة سامية فى الأجيال التالية .

ويروى كهنة آثينه نفسها (فلم يكن لها كاهنات) قصة غريبة عن مولدها ،فيقولون إن زيوس اشتهى ميتس (Metis) ، وهى ربة بدائية من الجبابرة (Titanes) ، وابنة أورانوس أى السماء ، وجايا (Gaia) ، أى الأرض . غير أنها تنكرت فى صور مختلفة حتى تهرب منه ولكنه تمكن منها فى آخر الأمر وأنجب منها طفلا . وأعلنت نبوءة « الأرض ـ الأم » أن المولود أنثى ، وأنه إذا حملت ميتس مرةً أخرى فستلد ذكراً ليطيح بعرش أبيه ، مثلما أطاح زيوس بكرونوس وأطاح كرونوس بأورانوس . واحتاط زيوس للأمر فأخذ يغوى ميتس بكلام معسول حتى

استكانت له ، ولكنه فغرفاه فجأة وابتلعها . هكذا كانت نهاية ميتس ، وإن رغم زيوس أنها ظلت تمده بالتضحية والرأى السديد من داخل بطنه. ولم يلبث كبير الآلهة أن أصابه من جراء ذلك صداع شديد بينما كان يسير على شواطىء بحيرة تريتون حتى أحس بأن رأسه على وشك الانفجار . فأخذ يعوى كالمجنون عواء هائلا رجّعت السماء صداه. وهرع إليه هرميس الذى أدرك من فوره سبب ألمه وشكاته . وما زال بأخيه هفايستوس حتى أقنعه بضرورة تخليص أبيهما من عذابه . وعندئذ هوى هفايستوس بفأسه على رأس زيوس وشجها ، فانبثقت منها آثينه . وقد خرجت الربة منها مدججة بالدرع تصيح صيحة الحرب التى ارتجفت لها الأرض والسماء ، وارتاع منها الآلهة ، وزلزل جبل أوليمبوس ، وهاج البحر وماج .

وقد أصبحت آثينه بعد مولدها العجيب أحب الأبناء إلى قلب زيوس. حتى أنه كان يعهد إليها أحيانا بحمل درعه المخيف وترسه الرهيب وصاعقته المهلكة . وكانت آثينه رعيمة الربات الثلاث اللائى لم يتزوجن أبداً حتى أنها لقبت بالفتاة العذراء (Parthenos) ، وعرف معبدها فى أثينا بمعبد العذراء (Parthenon) . فإذا وصفت أحيانا بالأم (Meter) ، فإن هذا لا يعنى سوى أن الأمهات كن يتعبدن لها ، مثلما كانت هيرا ، مع أنها زوجة زيوس ، توصف بالفتاة (Pais) والزوجة (Teleia) والأرمل (Chéra).

أو لعله يعني أنها كانت في الأصل، أي في الفترة قبل التاريخية، ربة متزوجة وأماً . وإن حاول الأثينيون طمس هذه الحقيقة لأنهم جعلوا من عذرية آثينه رمزا على استحالة قهر مدينتهم . وقد توحي الأسطورة التالية بوضع الربة القديم.

فقد رغب الإله هيفايستوس في الزواج من آثينه إبا، بدعوى أنه كان له فضل كبير في ميلادها أو في مقابل أسلحة صنعها لها في الحرب الطروادية عندما رفض زيوس إعارتها أسلحته لوقوفه على الحياد . وأدخل بوسيدون — إله البحر — في روعه أن الربة راغبة فيه وأن أباها راض عن زواجها منه . غير أن زيوس في الواقع ترك لابنته الخيار في أن ترفضه إذا شاءت . وعندما هم بها هفايستوس تمنعت عليه ، فانقض عليها يريد إغتصابها . وثار بينهما نزاع (eris) شديد وصراع عنيف سقط خلاله لقاح الإله على ساقها فنفضته عنها في اشمئزاز بقطعه من الصوف (erion) ، فسقط على الأرض (chthon) ؛ فانبتت الأرض طفلا نبذته « الأرض ـ الأم » ، فاحتضنته آثينه وتكفلت به وأسمته إريختونيوس (Erichthonius) . ولكي تتحاشى شماته بوسيدون فيها وتحرمه لذة التفكه بنجاح خدعته ، فقد أخفت هذا الطفل في سلة أو صندوق مقدس وعهدت به إلى أجلاوروس (Aglauros) كبرى بنات ككروبس (Cecrops) ملك أثينا الذي كان نصفه إنسان ونصفه الآخر ثعبان ، وأوصتها بأن تحفظه وديعة عندها . غير أن الفضول دفع أم اجلاوروس وأختيها إلى إزاحة الغطاء

عن الصندوق ليشاهدن مافى داخله .وقد هالهن أن رأين طفلا له ذيل ثعبان بدلا من الساقين ؛ فتملكهن الفزع ، وولين الإدبار قاذفات بأنفسهن من أعلى الأكروبول . ولما علمت أثينه بهذه الفاجعة ، حزنت حزنا شديدا حتى أن الصخرة الهائلة التى كانت تحملها آنئذ لتدعم بها حصن الأكروبول أفلتت من يديها فانحرفت بعيدا حيث أصبحت جبل ليكابتوس (Lycabettus) المتاخم لأثينا . وأما الغراب الذى نقل إليها الخبر فقد بدلت لونه الأبيض باللون الأسود ؛ وحرمت على الغربان جميعا أن تحوم فوق الأكروبول . وقد لاذ إرِيخثونيوس بدرع آثينه التى سهرت على تربيته ودللته حتى ظن البعض أنها أمه . ولما شب طفل الأكروبول المقدس وصار رجلا يافعا ارتقى عرش أثينا حيث أدخل عبادة الربة وعلم مواطنى المدينة استعمال الفضة ، وابتكر العجلة الحربية ذات الجياد الأربعة. ولهذا قيل إن صورته ظهرت فى السماء بين الكواكب باسم الأوريجا (Auriga) أى السائق .

ولم تتنازع آثينه وهفايستوس فقط ، بل تنازعت أيضا و بوسيدون ، إله البحر ، وهو نزاع مشهور ثار حول امتلاك أرض أتيكا . واحتدمت المنافسة فرأى بوسيدون أن يظهر آيته . وضرب بحربته المثلثة الشعاب صخرة الأكروبول فتفجرت منها عين ماء أجاج كماء البحر ، ثم انثبق منها الحصان . وأما آثينة فكانت آيتها شجرة الزيتون التى غرستها فى أتيكا لأول مرة .

ولذلك حكم شعب أثينا أو بالأحرى ملكها ككروپس فى صالح الربة لأنها وهبت البلاد ما هو أنفع . وأثار ذلك الحكم غضب بوسيدون فأغرق بماء البحر سهل ثريا (Ihria) ،ولكنه تصافى والربة فى آخر الأمر ورضى عن أتيكا ، وأصبح يلقى فى أثينا أعظم التكريم . ولما كانت آثينه فى الأصل نصيرة ملوك كريت وموكيناى وحامية ذمارهم ، فقد ارتبطت بالقلاع (acropoleis) ، وبالتالى ارتبطت بالمدن نفسها (poleis) ، ولذا اشتهرت بأنها « ربة المدينة الدولة » (polias) وربة أثينا بالذات التى لا يعدو اسمها أن يكون فى الواقع اسم الربة فى صيغة الجمع (Athenae) . على أنه من الخطأ الاعتقاد أن أثينا وحدها كانت مدينتها المقدسة ، فقد كانت أرجوس واسبرطه وطروادة مدناً مقدسة لدى هذه الربة .

ومع أن آثينه لها صلة وثيقة بالماء كما يتبين من لقبها (Tritogeneia) ، إلا أن أبرز اختصاصها كان فى ميدان القتال . لقد كانت آثينة ربة محاربة أو ربة حرب بوجه عام (Areia) ، مثلما كان أريس إلها للحرب . ولهذا تظهر فى الإلياذة كإلهة خبيرة بالخطط العسكرية ، ومقاتلة شديدة المراس ، قد تتسم أحياناً بالقسوة والشراسة عندما يتملكها غضب عنيف. ومع هذا فإنها لم تكن تقاتل إلا من أجل بطلها أو فريقها المختار فتقوده إلى المعركة (promachos) أو تبسط عليه حمايتها مثلما يبسط محارب قوى حمايته على الضعيف . على أن دفاع الربة عن مدينة أثينا لم يقتصر على

وقت الحرب فقط ، بل تعداه إلى وقايتها من شتى الأخطار فى وقت السلم أيضا . ومن ثم فقد اعتبرت أحياناً مبتكرة لبعض معدات القتال كالعجلة الحربية و بوق الحرب واللجام الذى روض الإنسان به الجياد . ومع أنها كانت ربة للحرب إلا أنها لم تكن تبتهج بالقتال كآريس و إيريس ربة الشقاق ، بقدر ما كانت تبتهج بحسم النزاع ومناصرة القانون بالوسائل السلمية . فهى لم تحمل السلاح فى زمن السلم . فإذا احتاجت إليه استعارته من ريوس . وكانت ربة رحيمة القلب ؛ فإذا تساوت أصوات المحلفين فى قضيه جنائية أمام محكمة الأريوپاجوس (Areopagus) ، أدلت بالصوت الذى يرجح كفة البراءة على الإدانة . وعند ما فاجأها تيريسياس (Teiresias) مرة وهى تستحم ، وضعت كفيها على عينيه فسلبته البصر ، غير أنها وهبته عوضاً عنه عكازاً سحريا ليقوده وعمراً مديداً ، ووهبته ، فوق ذلك كله ، نفاذ البصيرة ، فأصبح من أشهر العرافين .

ولما كانت ربة مدينة أثينا التى أحرزت فيها الصناعة تقدماً ملحوظا ، فقد أصبحت أيضا راعية للحرف والصناعات ، وبخاصة صناعة الغزل والنسيج والخزف والأشغال النسوية بوجه عام . وفى الحق إنها غدت معبودة الصناع على اختلاف مهنهم ، فاعتبرها صانعو الفخار وصائغو الذهب والحدادون معلمة لهم . ولا عجب إذن أن لقبت آثينه براعية المهن الصناعية (Erganê) ، وتداخلت اختصاصاتها إلى حد ما واختصاصات هيفايستوس ،

الأمر الذى يفسّر ارتباطها به فى الأساطير . وكان من الطبيعى أيضا أن تتطور آثينه ، بوصفها راعية المهن الفنية ، إلى ربة للحكمة (sophia) فى الأجيال التالية . ولعل منشأ هذا التطور يرجع إلى أيام هسيودوس الذى يروى عن مولدها قصة مختلفة فيقول إنها إبنة ميتس ، ربة الرأى السديد التى فاق علمها علم الآلهة والناس أجمعين . كذلك ارتبطت آثينه بربة الصحة (Hygieia) ولقبت باسمها فى بعض الأحيان . وكانت ربة النصر (Nike) ذات الجناحين . وهى فكتوريا (Victoria) عند الرومان — أشهر الربات اللائى سرن فى ركابها ، وما تزال أطلال معبد هذه الربة قائمة فوق الأكروبول .

هستيا

(فستا Vesta)

وهى بنت كرونوس ورهيا . وأخت زيوس : كانت مثل أرتميس وآثينه . ربة عذراء . وحدث بعد أن أطاح زيوس بعرش أبيه كرونوس أن تنافس فى طلب يدها كل من بوسيدون وأبوللون . وهى قصة لم تنشأ إلا لأنها عبدت مع هذين الإلهين فى دلفى . غير أن هستيا (Hestia) رفضت كل عروض الزواج التى تقدم بها الآلهة والبشر ، وأقسمت برأس زيوس أن تظل عذراء إلى الأبد . وقد حاول بريابوس[1] (Priapus) مرة أن يغتصبها . لكن ينبغى قبل أن أمضى فى سرد القصة أن أبين من هو بريابوس . لقد قيل عنه إنه كان إبن هرميس . وقيل عنه أيضاً إنه كان أباه . وليس من المستبعد أن يكون هو « هرما فروديتوس » ، أو أن يكون إبناً أنجبته أفروديتى من ديونيسوس أو أدونيس أو زيوس نفسه . وقد ولد مشوها مثل هفايستوس وفظيع الخلقة مثل بان ، فكان طويل اللسان منتفخ البطن ، جامح الشهوة إلى حد أن أمه تخلت عنه ونبذته وأنكرته إنكاراً تاماً . وفى الحق إنه كان أحد آلهة بلدة بريابوس ، وهى ما نعرفها اليوم باسم بلدة الدردنيل .

---

(١) أحد آلهة الإخصاب والرعى والموسيقى .

هذا الإله الغريب الشكل حاول مرة أن يغتصب الربة هستيا فى حفل ريفى دعى إليه الآلهة . و يبدو أن الآلهة شربوا وأكثروا من الشراب فلعبت الخمر رءوسهم وغلبهم النعاس وما لبثوا أن غطوا فى نوم عميق . وانتهز پرياپوس الفرصة فتسلل إلى مكان هستيا ولكنها هبت من نومها مذعورة على نهيق حمار وصرخت بأعلى صوتها فأطلق پرياپوس ساقيه للريح دون أن يحقق بغيته . ألا فليحذر من يحاول إنتهاك حرمة الضيوف من النساء اللاتى يسكن تحت حماية الموقد المقدس ! و يبدو أن الناس لم تنس هذه الحادثة فظلت الحمير تنحر قرباناً لپرياپوس فى أماكن عبادته .

ولم تكن العذرية وحدها هى موضع افتخار هستيا ، فقد كانت دون سائر آلهة أولمپوس هى الوحيدة التى لم تشترك أبداً فى حروب أو منازعات . ولهذا السبب استجاب زيوس إلى رغبتها فى أن تكون الذبيحة الأولى من نصيبها فى أى حفل عام للقرابين ، وأن تحتل فى أى منزل مكانه الأوسط ، و بذلك أصبحت هستيا — كما يتبين من اسمها — ربة الموقد ، رمز الحياة العائلية، وما يسودها من سلام وتضامن وهناء . لقد كان إضرام النار فى العصور القديمة عملية شاقة تستغرق وقتاً طويلا ، ولذلك أصبح إبقاؤها مشتعلة أمراً مرغوباً فيه . و يبدو أن موقد الزعيم أو الملك كان على جانب كبير من الأهمية بين الجماعات الأولى سواء فى بلاد اليونان أو فى إيطاليا إما لفائدته العملية أو لأسباب تتصل بالديانة والسحر . لقد كانت النار ترادف الحياة

تقريباً . ومن ثم أصبحت عبادة الموقد الجماعى أو الموقد المقدس عامة شاملة . غير أن ربته لم تتخذ، كغيرها من الآلهة ، أشكالا أخرى بشرية أو حيوانية، ولهذا لم تنشأ حولها أساطير تقريبا ، ولم يرد لها ذكر عند هوميروس . وإنما كانت هستيا تبسط حمايتها على من يستجيرون بالموقد المقدس سواء فى منزل خاص أم فى مكان عام . وحول هذا الموقد كان يطاف بالمولود الجديد فى اليوم الخامس من ولادته ، وهو يوم الاحتفال بتسميته حتى يعترف به عضوا فى الأسرة . وفضلا عن ذلك فإن كل وجبة من وجبات الطعام كانت تبدأ وتنتهى بتقديم القرابين إليها وكان إسمها أول ما يذكر عند الصلاة وأول ما ينطق به غالباً عند القسم . وكما كان فى كل بيت موقد لهستيا كان لكل مدينة موقد عام موقوف على الربة فى قاعة البريتانيوم (Prytaneum) ، وهى بمثابة دار الرياسة ، حيث كان يستقبل الضيوف والأجانب . ولما كان لهستيا أيضاً موقد مقدس فى معظم قاعات مجالس الشورى (Boulê) ، فإنها كثيراً ما نوديت باسم بوليا (Boulaia) . وعند تأسيس أى مستعمرة يونانية (apoikia) كان المهاجرون يحملون معهم قطعاً من فحم موقد المدينة الأم (metropolis) لكى يشعلوا به نار موقد المستعمرة الجديدة. ولقد روى إن كومة الفحم المتخلف تحولت فى دلفى إلى صخرة مقدسة اشتهرت بإسم « السرة » (Omphalos) ، وهى التى توهم اليونان أنها مركز العالم ، وتشاهد كثيراً فى زخارف الأواني الخزفية .

ولقد عرف الرومان هستيا بإسم ڤستا ربة النار المقدسة ، وأقاموا لها معبداً خاصاً فى روما . وكان يقوم على خدمتها فيه ست عشرة فتاة عذراء، يخترن من بين الأسر العريقة ، ويبقين كذلك ثلاثين عاماً . وكان الكاهن الأعظم (pontifex maximus) هو الذى يتولى أمرهن ويوقع عليهن الجزاء فى حالة إهمالهن النار أو انحرافهن عن سواء السبيل . وحدث أن فرطت إحداهن فى عفتها فكان جزاؤها أن دُفنت حية .

هيرا

(چــونو Juno)

كانت ربة قديمة ، ولا نعرف اسمها الأصلى الذى حماته قبل مجىء الآخيين، ولـكن اسمها اليونانى (Hera) يعنى السيدة (فهو مؤنث heros بمعنى السيد أو الفارس) . وقد جعل الإغريق منها أختاً لزيوس وزوجة شرعية، فحاث بذلك مكان ديونى ، ما عدا فى بلدة دودونا ، أقدم مكان لعبادة زيوس على ما يرجح ، ويبدو أن أرجوس كانت أقدم بلد عبدت فيه هيرا حتى أنها لقبت بالأرجيه (Argeia) . كما عبدت أيضاً فى ساموس منذ زمن مبكر ، وإن زعم أهل أركاديا أنها نشأت فى بلادهم . ولدينا أدلة وفيرة على انتشار عبادتها فى معظم أنحاء العالم الهلينى ، سواء وحدها أم مع زيوس . وقد اشتهرت هيرا بعداوتها لطروادة والطرواديين ، ومن بينهم أيبياس ، بطل ملحمة فرجيل ، وبمناصرتها ياسون ، بطل ملاحى السفينــة « أرجو » التى أبحرت إلى كولخيس لاسترداد الفروة الذهبية . ولعل كراهيتها للطرواديين ترجع إلى القصة المشهورة باسم « قضاء باريس » التى قيل إنها السبب الأصلى للحرب الطروادية ، لأن باريس ، بن بريامو س ملك طروادة ، حكم « بالتفاحة الذهبية » لأفروديتى دون آثينه وهيرا ، مثيراً على بلده عضب زوجة كبير الآلهة .

وتظهر هيرا فى أغلب الأساطير فى صورة الرقيبة على حركات زيوس وسكناته . ذلك أن زيوس كبير الآلهة — كما سنرى — لم يكن على جلال قدره زوجاً مخلصاً ، فكان يتحايل بشتى الطرق للاتصال بغيرها من الالهات وغير الالهات . ولذلك انحصر جهد هيرا فى تعقبه لكشف خدعه والإيقاع به والانتقام من عشيقاته مهما انتحلن من أعذار لتبرير مسلكهن . وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فقد كان زيوس مزواجاً ، الأمر الذى أثار الغيرة الشديدة فى قلب زوجته ، فانفقت معظم وقتها فى الكيد لزوجاته الأخريات وأبنائهن منه . بل إن هيرا كانت تغار حتى من الأبناء الذين أنجبهم زيوس دون الاتصال بغيرها من الالهات . حدث ذلك مثلا عند ما أنجب زيوس آثينه من رأسه على نحو ما روينا . فقد حقدت عليه هيرا لأنه أنجب آثينه دون الاتصال بها ، وهى زوجته الشرعية ، واستبد بها الغضب فسعت هى الأخرى إلى إنجاب الأبناء دون معاونته . وإن لم تحاول أبداً تدنيس فراش الزوجية، فقد كانت ربة الزواج المقدس ، وبخاصة الزواج من امرأة واحدة . فلما بلغ هيرا نبأ ميلاد آثينه العجيب ، صاحت فى مجمع الآلهة غاضبة « أنصتوا إلى ، أيها الآلهة وأيتها الآلهات جميعا ، وانظروا كيف يجلب لى زيوس العار والمهانة ، وهو أول من يفعل هذا العمل المشين بعد أن صرت زوجته . لقد أنجب وحده آثينه التى هى قرة عين الآلهة الخالدين ، بينما ابنى هيفايستوس الذى أنجبته ، ولد مشوها

ضئيلا فأصبح وصمة فى جبين أوليمبوس . ولاأخفى عليكم أننى ألقيت به فى البحر ولكن ثيتس (Thetis) ، إبنة نريوس (Nereus) ، تلقفته وعنيت به هى واخواتهــا . وليتها أدت لنا خدمة أخرى ! أى زيوس ، أيهاالوحش المخادع ، كيف اجترأت على أن تلد آثينه ؟ أو لم يكن فى وسعى أن أنجب لك طفلا ؟ أو لست أنا زوجتك ؟ إننى ساعمل من الآن على أن أنجب ابنا ليكون دُرّة بين الآلهة . وسأفعل ذلك دون أن أدنس فراشك أو فراشى . ولكننى لن أتصل بك . لسوف أهجرك ».

وانتبذت هيرا مكانا قصيا عن سائر الآلهة ، ثم ابتهلت ضاربة الأرض براحة يدها قائلة « أى جايا وأورانوس (الأرض والسماء)، استمعا إلى من عليائكما وأنتم أيها التيتانيس الجبابرة ، استمعوا إلى ، يا من تسكنون تحت الأرض فى ترتاروس ، (Tartarus) أنتم يا أجداد الآلهة والناس، أعيرونى آذانكم جميعا ، وهبونى ابناً لا يكون أضعف من زيوس نفسه . وكما كان زيوس أشد بأساً من أبيه كرونوس. اجعلوا ابنى أشد بأساً منه ».وصربت الأرض بيدها القوية ، فسرت رعدة فى أوصال جايا ، مصدر الحياة . وأنشرح قلب هيرا لأنها أدركت أن جايا استجابت لها وحققت أمنيتها . ومنذ ذلك الحين لم تضاجع هيرا زيوس عاما بأكمله ، ولم تجلس إلى جانبه حيث إعتادت أن تجلس وتشاوره الأمر . وأقامت هيرا فى المعابد تستمتع بما يقدم لها من قرابين . وبعد أن مر حول جاءها المخاض فولدت مخلوقا لا يشبه الآلهة أو

الناس ؛ وكان هذا المخلوق هو تيفاون (Typhaon) التنين الرهيب الذى كان وبالاً على البشر . وحملته هيرا إلى دلفى حيث عهدت به إلى التنينة پيثون (Python) ، تلك الأفعى الهائلة التى صرعها أبوللون بسهمه الذى لا يطيش .

ولعل قصص التشاحن المستمر بين الزوجين الإلهيين هى صدى ذكريات خافتة عن الوقت الذى لم يكن التوفيق قد تم بين عبادتيهما. وعلى أى حال فقد اشتهرت هيرا دائماً بأنها حافظة رباط الزواج المقدس (Zygia; Gamelia) كما عرفت أيضا ، كأرتميس وهكاتى و إبنتها إيليثيا ، بمساعدة النساء عند الوضع ، و بحضانة الأطفال وتربيتهم . لقد كانت هيرا ربة للزواج وربة للنساء و بخاصة فى شئون حياتهن الجنسية . فإذا لقبت فى بلدة مثل استيمفالوس فى إقليم اركاديا بالفتاة والزوج ، والأرمل. فإن هذا لا يعنى — كما أسلفنا — سوى أن النساء جميعا ، على اختلاف أوضاعهن ، كن يتبتلن إليها و يسألنها العون فى ساعة الشدة .

وثمة قصة أخرى عن هيرا . فقد أحست هيرا بالخزى من إبنها هيفايستوس الذى ولد قبل الأوان فجأة مشوهاً قميئاً . ولذلك نبذته منكرة أنها أمه . وأثار ذلك حقده الدفين عليها . وقد وكلت إلى هيفايستوس بوصفه أمهر الصناع ، صناعة عروش الأرباب . ولم يلبث أن أرسل عرشاً جميلا إلى هيرا ؛ واغتبطت هيرا بالهدية وجلست على العرش ولكنها

سرعان ما وجدت نفسها مقيدة بسلاسل خفية . ولم يلبث العرش نفسه أن ارتفع بها وهى مصعدة عليه بالأغلال فى أعلى الفضاء : ولم يستطع أحد أن يفك إسارها فساد الذعر بين الآلهة . وقد أدركوا جميعاً أن الحيلة من صنع هيفايستوس فبعثوا إليه برسالة يرجونه فيها ضرورة الحضور لإطلاق سراح أمه . ولكنه أجابهم فى عناد بأنه ليس له أم . وانعقد مجلس الآلهة وخيم الصمت على الجميع ولم يدروا كيف يحملون هيفايستوس على الحضور إلى أوليمبوس .وانبرى أريس ، رب الحرب ، ليضطلع بالمهمة . غير أنه ارتد على أعقابه خاسراً ، بعد معركة عنيفة بالمزاريق والحراب ، أمام اللهب الذى قذفه به رب النار والبراكين ، وعاد يخفى حنين منهزماً محسورا . وأما بقية القصة فقد وصلتنا مصورا فى رسوم بديعة على الأوانى الخزفية . ومن هذه الرسوم نعلم أن ديونيسوس ، إله النبيذ ، وابن زيوس وسيميلى هو الذى استطاع أن يحضر هيفايستوس إلى منزل الآلهة ، فقد احتال عليه بأن قدم له نبيذاً أثمله وأفقده وعيه .وعندئذ أركبه ديونيسوس بغلا ورافقه إلى أليمبوس كأنه يسوقه فى موكب من مواكب النصر. ولا مراء فى أن الآلهة قد ضجوا بالضحك عندما شاهدوا الصانع الماهر وهو يترنح مخمورا . ولكنه لم يكن ثملا إلى الحد الذى يجعله يطلق سراح أمه دون مقابل . فقد أصر أن يحظى بأفروديتى زوجة له ، أو بربة أخرى كبلاس آثينه . غير أن هيفايستوس الأعرج لم ينل أبداً الحظوة لدى الإلهات . وعلى أى حال فقد أخلى سبيل هيرا بعد تحطيم الأغلال .

زيوس

(جوبتر Juppiter)[1]

يأتى زيوس (Zeus) فى مقدمة أرباب أوليموس . وكان زيوس وأخواه قد اقترعوا على الكون ، فكان البحر من نصيب بوسيدون ، والعالم السفلى من نصيب هاديس . وأما زيوس فأصبح الحاكم الأعلى ، رب الآلهة والناس . وكان ، كما يتبين من اسمه ، الذى يعنى السماء أو السماء الصحو ، رب السماء بوصفها موطناً لكل الظواهر الجوية والطقس بوجه عام : المطر والبرق والرعد والعاصفة . ولما كان أثر هذه الظواهر يبدو جليا عند قمم الجبال : فقد تربع زيوس على عرشها . وفى الحق إن أوليبوس كلمة قديمة سابقة على مجىء اليونان إلى بلادهم ، معناها الجبل . وجدير بالذكر أن رب الصاعقة أيضا كان هو الإله الأعلى عند الشعوب البدائية . وقد وصف زيوس بأنه جامع السحب . ومحرك الصاعقة المخيفة . وكان درعه (aegis) شيئا ترهب العين أن تراه ، وطائره هو النسر ، وشجرته البلوط . واشتهرت بلدة دودونا فى إقليم إبيروس بأنها مكان نبوءته (oraculum) . حيث كان الإله يكشف عن إرادته بحفيف أوراق البلوط الذى يتولى الكهنة تفسير معناه : وتعزى نشأة هذه النبوءة إلى يمامة جاءت إلى هذا

(١) أو Jupiter .

المكان طائرة من طيبة فى جنوب مصر . وكانت قوة زيوس تفوق قوة الآلهة الآخرين مجتمعين . ومع هذا فإنه لم يكن إلها قادرا على كل شىء ولا يحيط علمه بكل شىء . فكان من الممكن معارضته وخداعه . وفى الإلياذة يعكر به بوسيدون ويعكر به هيرا . وفى بعض الأحيان توصف تلك القوة الخفية ، وهى القدر (moira) ، بأنها أقوى منه . فنجد هيرا تسأله مرة فى شىء من الاستخفاف إن كان فى نيته أن ينقذ من الموت رجلاً كتب له القدر أن يموت .

وتصوره كثير من الأساطير إلها يقع فى حب نساء كثيرات ، بعضهن من البشر و بعضهن الآخر من الإلهات . فيلجأ — كما أشرنا — إلى شتى الحيل لإخفاء خيانته عن هيرا ، زوجته الغيور . وفى رأى بعض الباحثين أن هذا المسلك المشين الذى لا يليق بأرفع الآلهة مقاما ، إنما يرجع إلى أن زيوس نشأ عن ائتلاف عدة آلهة . وعندما كانت عبادته تنتشر فى مدينة كان يوجد فيها من قبل إله أو حاكم مؤله ، امتزج الاثنان تدريجياً فى إله واحد . وعندئذ كانت زوجة الإله المحلى أو الحاكم المؤله تئول إلى زيوس . ومن ثم نشأت هذه العلاقات النسائية الكثيرة التى لم ترق فى عين إغريق العصور التالية . ومع هذا فإن زيوس يوصف فى أقدم النصوص بالإله الأجل والأعظم والأكبر الذى يسكن فى السماء . ولم يكن زيوس يأمر

عباده بتقديم القرابين فحسب، بل بإتيان العمل الصالح أيضا . « فهو لا يعين أبداً من يكذبون أو يحنثون باليمين » . لقد كانت هناك فكرتان متناقضتان عنه، إحداهما طيبة والأخرى سيئة شأنه فى ذلك شان بقية الآلهة والإلهات . وقد ظلت كلتا الفكرتين جنبا إلى جنب حقبة طويلة .

ولقد ذكرنا أن زيوس كان رب الآلهة والناس . لكن ذلك لا يعنى أنه خالقهم، بل يعنى فقط أنه كان أباهم الروحى أو راعيهم (Pater, Patroos) لأن مركزه كان أشبه بمركز رب الأسرة وحامى ذمارها عند الرومان (Paterfamilias) . وهذه الفكرة الموروثة عن الشعوب الهندية — الأوربية تتضمن معنى أخلاقيا وهو المحافظة على القوانين والعرف المتوارث، كحماية اللاجئين ورعاية الغرباء ، وهى صفات ارتبطت دائما بزيوس ،فعرف باسم حامى المتوسلين (Hikesios) وراعى الضيوف الأجانب (Xenios). ويفسر ذلك كيف أصبح زيوس رب فناء المنزل (Herkeios) ، الذى كان يحاط عادة بسور لوقاية سكانه من عدوان المغيرين وهجوم الحيوانات المفترسة ؛ وأصبح رب الأسرة وحامى ممتلكاتها (ktesios) . ولما كانت المدينة — الدولة ترتكز أساسا على الأسرة ، فقد صار زيوس — كما يتضح من اشعار هوميروس — راعيا للملك وحقوقه . وقد تصور أهل الحضارة الموكينية ربهم الأعلى والأرباب الآخرين على شاكلة ملك موكيناى

والأمراء الأقل قوة فى المدن الأخرى . وكما كان هؤلاء الأمراء يدينون لملك موكيناى بقدر من الطاعة ، ويتمردون عليه فى بعض الأحيان ، كذلك كان زيوس محاطا بأرباب مشاكسين ، يخلونه تارة ، ويسخرون منه تارة أخرى . فلم يكن زيوس يحكم بمقتضى الحق والعدالة ، بقدر ما كان يحكم عنوة واقتدارا . وكان هوميروس هو الذى طبع صورة هذا الإله فى أذهان الإغريق . ومع أن الملكية زالت فى العصر التاريخى، إلا أن عرش زيوس ظل وطيد الأركان فأصبح هو الإله الأعلى للمدينة (Polieus) ، جنبا إلى جنب أثينه ربتها العليا (Polias) . لأنها كانت فى الأصل ربة القصر الموكينى وحامية مليكه . وكان زيوس بوصفه حاميا للحرية السياسية يدعى بالمحرّر (Eleutherios) والمخلّص (Soter) وأنشئت له الأعياد بهذه الصفة لكن اليونان لم ينسوا أبداً أنه حامى القانون والتقاليد والأخلاق . ويبتهل إليه الشاعر التعليمى هسيودوس بوصفه نصير العدالة ، ويقرنه بديكى (Dike) ، ربة الجزاء العادل أو الحق[1] . ويبالغ زيوس

---

(١) وهى فى الأصل إحدى ربات الفصول الثلاث اللاتى أنجبهن زيوس من زوجته تيميس ، ربة العرف الراسخ أو القانون الطبيعى الذى تسير الحياة طبقاً له . وكانت أختاها هما يونوميا (Eunomia) ، ربة النظام العادل أو الحكم الصالح أو التقاليد المرعية، وأيرينى (Eirene) — باكس Pax عند الرومان — ربة السلم وما يصحبه من رخاء .

أسمى منزلة عند الشاعر المسرحى أيسخولوس (Aeschylus) ، الذى يعظم من شأنه و يشيد بعدالته وتقواه وقوته الساحقة. غير أن أهمية ز يوس لاتبرز أثناء العصر التار يخى فى حياة الناس الدينية بقدر ما تبرز فى الفن والأدب.

ولدينا عن ز يوس عدة أساطير هامة . وحسبنا أن نورد هنا أسطورة مولده الكريتية ، وهى قصة غريبة تقول إن رهيا ، أم ز يوس ، أخفته بعد ولادته فى كهف بجبل أيجايون أو دكتى أو إيدا بجزيرة كريت حتى لا يبتلعه أبوه كرونوس مثلما ابتلع بقيــة إخوته . وهناك قامت بإرضاعه الحوريات أو الحيوانات أو الطيور أو النحل . وفى مقدمتها العنز أمالثيا (Amalthea) ، وهى أشهر مرضعاته . ورقصت حوله كائنات نصف إلاهية ، أشبه ما تكون بالأرواح (daımones) ، تعرف باسم كوريبانتيس (Korybantes) أو كوريتيس (Kouretes) أى الصبية . وإن عرفت أيضا باسم أصابع إيدا (Daktyloi Idaioi) لأنها نبتت من أرض جبل إيدا التى ارتكزت عليها رهيا بأصابعها عندما جاءها المخاض . هذه الكائنات أو الأرواح أخذت ترقص حول زيوس بعد مولده وتضرب دروعها حتى تطغى قرقعة السلاح على صراخ الطفل فلا يسمعه كرونوس . وتضيف الأسطورة الكريتية أن ز يوس مات ودفن بالجزيرة . وليس ثمة شك فى أنها فكرة مينوية الأصل ترمز إلى روح

النبات ، نمائه ومواته فى كل عام . وقد اطاح زيوس بعد أن اشتد عوده بعرش أبيه كرونوس وقاتل بمعاونة أرباب أوليمبوس التيتانيس ، وهم آلهـة جبابرة بدائيون ، وقهرهم وقيدهم بالأغلال ، ثم قذف بهم إلى ترتاروس ، وهو مكان مظلم سحيق محاط بسور من حديدو يبعد عن سطح الأرض بعدها عن السماء .

على أن أشهر الأساطير عن زيوس هى التى تدور حول صراعه الطويل ضد خصومه قبل أن يستوى على عرش الـكون . ويعود بنا هذا الصراع إلى نشأة الـكون نفسه . ويروى لنا هسيودوس أنه لم يـكن هناك فى الأصل سوى الفراغ (Chaos) ، وهى كلمة تعنى فراغ الفم عند التثاؤب ، وتعنى الآن الفوضى والاضطراب . ومن بعده نشأت الأرض (Gaia) ، الربة ذات الصدر العريض ، وموطن جميع الآلهـة سواء من يسكنون منهم فى الأعالى فوق جبل أوليمبوس أو فى أغوار الأرض . وكان هناك الحب ، أجمل الآلهـة الخالدين ، الذى يسرى فى أوصال الآلهة والناس ويتحكم فى قلوبهم . ومن الفراغ نشأ ظلام الأعماق (Erebos). وقد أنجب الليل (Nyx) من الظلام ، نور السماء ، (Aether) ، وضوء النهار (Himera) . وأما جايا أو الأرض فـكان أول من أنجبته كفواً لها ليـكون قرينها فيحنو عليها ويغطيها تماماً ويصبح منزلا أبديا للآلهة

المباركين . وقد تمخضت جايا كذلك عن الجبال التي تهوى الحوريات والعرائس (Nymphae) السكنى في تلالها . كما ولدت البحر المزبد (Pontus) . وجميع هؤلاء قد ولدتهم الربة بدون « إيروس » ، أي دون أن يمسها أحد . ولقد أنجبت جايا من أورانوس نفسه الجبابرة من ذكور وإناث . وهم آلهة قدامى بدائيون يتسمون بالوحشية ولا يرضخون لقانون .

ومن بينهم كان إله النهر أو النهر الإله أوقيانوس الذي تنبع منه كل الأنهار والينابيع والعيون بل والبحر نفسه ويجرى باستمرار في حلقة دائرية حول الأرض ويقوم كالحد الفاصل بين العالم وما وراء العالم . ومن بينهم أيضا كانت تثيس(Tethys) ، ربة البحر ، وزوجه أوقيانوس، التي أنجبت منه ثلاثة آلاف ولد . وهم الأنهار وعشرات من البنات ، وهن عرائس النهر والبحر (Oceaninae) أو بنات أوقيانوس . وكان من بين حفيداتها ثيتس(Thetis) . سيدة البحر الكبرى . التي لايستبعد أن اسمها هو اسم جدتها نفسه محرفا . كما ولدت جايا من أورانوس تلك المخلوقات العجيبة المعروفه باسم الكيكلوبس(Cyclopes) التي كانت تتوسط جبهة كل منهم عين مستديرة .

وكان أورانوس ،رب السماء يجيء زوجته جايا — ربة الأرض — في كل ليلة ليسترخي بجوارها . غير أنه كان يكره منذ البداية أبناءها منه . ولذلك كان يبادر بإخفائهم بعد ولادتهم مباشرة في جوف الأرض حتى

لا يروا نور الدنيا . وكم كان أورانوس يبتهج بهذا العمل المرذول، بينما كانت جايا تئن أنينا ، وجعا من حملها الثقيل الذى كاد أن يزهق روحها . ولذلك دبرت حيلة لكى تتخلص من عدابها المتصل . وأحضرت حديدا وصنعت منه منجلا حاد الأسنان ، ودعت أبناءها الستةوفى مقدمتهم أوقيانوس، ومن بينهم كرونوس الذى كان أصغرهم سنا ، كما استدعت بناتها الست ، ومن بينهن رهيا وثيمس وتثيس . وسردت عليهم الأم ما تعانيه من عـذاب بسبب سلوك أبيهم المشين وجرائمه البشعة ، وناشدتهم أن يهبوا لمساعدتها فى الانتقام من أبيهم وتخليصها من شروره.وما أن سمعوا القصة حتى تملكهم الخوف وخيّم عليهم الصمت ولم يجسر أحد على أن يفتح فاه.وأخيرا انبرى كرونوس المخادع مظهرا استعداده للكيد لأبيه والتربص به فى أى كمين تنصبه. وأخفته أمه فى كمين أعدته وأعطته المنجل الذى صنعته وأنهت إليه بتفاصيل المؤامرة . وجاءها أورانوس بليـل مشتاقا إلى مضاجعتها وأرخى سدوله عليها وغطاها فالتحمته كدأبها فى كل مساء.وعندئذ أنقض كرونوس من مخبئه بالمنجل وخصا أباه قاذفا بعضو تناسله (phallus) إلى مسافة بعيدة. وقد تسرب الدم الذى نزف من أورانوس إلى رحم جايا فانبتت ربات الغضب والانتقام، والعمالقة (Gigantes) . وأما عضو إخصاب إله السماء ، فقد سقط فى البحر حيث اختلط به زبد الموج الذى انبثقت منه أفروديتى[1] . ومنذ

(١) أنظر ص٨ أعلاه .

أن ارتكب كرونوس جريمته الدامية لم يقرب إله السماء ربة الأرض ولم يأت لمضاجعتها ، واندثرت السلالة الأولى ، وأعقبها حكم كرونوس الذى تربع على عرش الكون .

وقد تزوج كرونوس أخته رهيا وأنجب منها ستة من آلهة أوليمبوس : ثلاث ربات كبيرات هن هستيا وديميتير وهيرا، وثلاثة أرباب كبار هم هاديس وبوسيدون وزيوس . وكما كان كرونوس أصغر أبناء أورانوس ، كان زيوس أصغر أبناء كرونوس، وإن روى هوميروس رواية مخالفة لهسيودوس، مؤكدا أن زيوس كان أكبر إخوته . وقد شابه كرونوس أباه فى تخوفه من أبنائه ، فكان يبتلعهم بمجرد ولادتهم. ولعله لم يشأ أن يرث أحدهم ملكوته أو يخالفه فى مركزه . وقد زاد من خوفه أن أبويه حذراه من أن أحد أبنائه الأقوياء سوف يطيح بعرشه . ولهذا أخذ حذره ، فكان يلتهم كل مولود تنجبه له زوجته . وقد حز ذلك فى صدر رهيا وجاوز ألمها حد الاحتمال . فلما اقترب ميعاد وضعها ابتهلت إلى أبويها ، الأرض والسماء ، وناشدتهما أن يعيناها على أن تلد الطفل الجديد خفية ، وعلى أن تثأر أيضا لأبنائها الذين أخفاهم كرونوس فى جوفه . واستجابت جايا وأورانوس إلى دعاء ابنتهما وكشفا لها عما خبأ القدر لزوجها وما كتبه لابنها . وأرسل الوالدان رهيا إلى جزيرة كريت حيث تولت أمها جايا حضانة الرضيع . وعندما أحضرت رهيا الطفل إلى الجزيرة فى بهيم الليل أخفته فى كهف بجبل إيجايون

« أو دكتى أو إيدا) ، وهو جبل تكسوه غابات كثيفة . ولقد ذكرنا من قبل كيف تمت حضانة زيوس الطفل وكيف تمت تربيته. وينبغى أن نضيف أن رهيا خدعت زوجها وقدمت له حجرا ملفوفا فى قماط فابتلعه ظنا منه أنه الطفل نفسه، ولم يدر بخلده أن ابنه كان يترقب الوقت حتى يشب عن الطوق ويشتد ساعده ليطيح به ويجرده من سلطته ، ويحكم فى مكانه . فلما بلغ زيوس أشده واكتملت رجولته قهر بالقوة والخديعة أباه كرونوس ، بل أرغمه أيضا على أن يلفظ من جوفه بقية إخوته . ولم يحرر زيوس أشقاءه فقط ، بل حرر أيضاً أعمامه ، الذين كانوا ما يزالون يرسفون فى أصفاد أورانوس . وكان فى مقدمتهم السكيكلوبيس الذين اعترفوا بجميل زيوس عليهم فمنحوه الرعد والبرق ، وهما شعار قوته ورمز جبروته . وبذلك خلف زيوس أباه كرونوس على عرش العالم وأصبح سيده (anax) ومليكه (basileus) . لكن ينبغى أن نذكر أن حكم كرونوس اقترن فى الأذهان « بالعصر الذهبى » ، فكان فترة زاهية من فترات تاريخ العالم بلغ من رخائها أن العسل كان يتدفق أثناءها من أشجار البلوط . وفى الحق إن زيوس عندما قيد كرونوس بالأغلال وحمله إلى الطرف الأقصى من الأرض ، حمل معه « العصر الذهبى » الذى ما يزال قائما عند « جزر النعيم » [1]

(١) Elusion ، باللاتينية Elusium) وكانت مصير الصالحين من البشر الذين رضى عنهم الآلهة وكتبوا لهم السعادة فى الحياة الآخرة ، ويقال إن هذه الجزر كانت تقع فى مجرى الاوقيانوس إلى الغرب من الجحيم (هاديس) .

(Makaron Nesoi) حيث تهب نسائم نهر أوقيانوس على برج قصر كرونوس وزوجته رهيا .

على أن متاعب زيوس لم تنته بتخلصه من كرونوس ، فقد كاد مرة أن يلقى مصير أبيه . ويحدثنا هوميروس كيف تآمرت هيرا و بوسيدون وأثينه على تقييده بالأغلال . غير أن ثيتس ، ربة البحر الكبرى ، استدعت وحشاً يدعوه الآلهة بإسم بريار يوس (Briareos) ، ذى الأذرع المائة ، و يدعوه البشر بإسم أيجايون (Aegaeon) ، أ كبر الظن لأنه شارك هذه الربة سلطانها على البحر الإيجى فترة من الزمن ؛ استدعته من أعماق البحر ونصبته حارساً على ابن كرونوس . وعندئذ خاف الآلهة الثلاثة فأقلعوا عن التآمر على زيوس وكفوا عن محاولة تكبيله بالسلاسل . والحق أن بريار يوس ومن على شاكلته من الوحوش هم الذين استطاع زيوس بفضلهم أن يوطد نفوذه ويفرض سيطرته على سلالة أورانوس . لكن لم يلبث أن واجه زيوس وأبناء كرونوس ورهيا خطراً شديداً من جانب التيتانيس ، وهم — كما أسلفنا — الآلهة القدامى البدائيون ، أو الجبابرة . فقد اشتبك هؤلاء معهم فى حرب مريرة زهاء عشر سنوات . وشن الجبابرة الحرب من قمة جبل أوثريس ، بينما خاض زيوس وأخوته غمارها من قمة جبل أوليمبوس . وقد ظل الصراع الرهيب محتدما دون نهاية حاسمة . وأخيراً كشفت جايا

للآلهة الجدد سر الانتصار . وعمل الآلهة بنصيحتها فاستدعوا بريار يوس وزميليه ، ذوى الأذرع المائة ، من الطرف الأقصى للأرض وأغوار اليم ، و بثوا فيهم العزم والقوة بأن أشربوهم « نـكتارا » وأطعموهم «أمبروسيا » وهما شراب الآلهة الخالدين وطعامهم . وناشدهم زيوس أن ينضووا تحت لوائه فى الحرب المستعرة ضد الجبابرة. ولم يلبث أن استؤنف القتال فاصطف الآلهة والإلهات فى مواجهة الجبابرة، ذكوراً و إناثاً . ولما كان الآلهة الجدد قد كسبوا إلى جانبهم ثلاثة حلفاء لـكل منهم مائة ذراع ، فـكأن عتادهم زاد ثلاث مائة حجره . و بهذا الوابل من الحجارة إنهالوا على الجبابرة وغلبوهم على أمرهم . وقيد التيتانيس بعد هزيمتهم بالسلاسل وقذف بهم فى ترتاروس ، الذى سبق أن وصفناه بأنه مكان سحيق الغور فى باطن الأرض يبعد عن سطحها بعد هذا السطح عن السماء . وعلى هذا المـكان كان يهوى سندان ضخم يقطع الجوزاء فى تسع ليال و يبلغ الأرض فى الليلة العاشرة ثم يغوص فى باطن الأرض تسع ليال أخرى ليبلغ ترتاروس فى الليلة العاشرة . وكان ترتاروس معقلا محاطاً بسور من حديد ، تـكتنفه حجب كثيفة من الليل البهيم . وفوقه كانت تنبت جذور الأرض والبحر ، وفى داخله كان يقبع الجبابرة وسط ظلام دامس ، لا يراودهم أبداً بصيص من الأمل فى الفرار منه ، ذلك لأن بوسيدون قد صنع أبواب المعتقل من حديد غليظ ، وأقام زيوس بريار يوس وزميليه حراساً عليه .

ولقد روى أن صاعقة زيوس ، الحاكم الجديد ، التى رجحت كفة الآلهة فى صراعهم ضد الجبابرة . غير أن هذه الرواية المنتحلة لم يقصد منها سوى الدفاع عن سمعة زيوس .

ولم يكد زيوس يفرغ من صراعه ضد التيتانيس حتى واجهه خطر أشد وأنكى . فقد أنجبت جايا ابنا يدعى تيفون (Typhon)[1] . وكان تيفون هذا تنينا ضخما فاق على صغر سنه جميع أبنائها الآخرين فى الضخامة والقوة . وكان ردفاه كردفى الانسان ، ولكنه كان فارعا تطاول قامته أعلى الجبال ، وتنطح رأسه النجوم فى كثير من الأحيان . وإذا بسط ذراعيه امتدت إحداهما إلى المغرب والأخرى إلى المشرق . وقد نبتت من كتفيه مائة رأس من رءوس الأفاعى . وأما أسفل ردفيه فكان أشبه بثعبانين يصطرعان ، وقد يشرئبان إلى ما فوق رأسه ويحومان ثم يفحان فحيحا مزعجا يدوى فى الآذان . ولقد قيل إن الآلهة كانت تفهم ما يصدر من أصوات عن رءوس هذه الأفاعى المائة . غير أن تيفون كان فى وسعه أيضا أن ينبح كالكلب أو يئز أزيزا ترجع الجبال صداه . وقد اكتسى كل جسمه بالأجنحة . وكثيرا ما كان شعر رأسه الأشعث ولحيته يموجان

---

(١) أو تيفوس Typhoeus أو تيفوس Typhos أو تيفاون Typhaon ، والأمر غير تيفاون دلفى الذى أنجبته هيرا وحدها دون مباشرة زيوس ؛ أنظر ص ٤٠ أعلاه.

فى الهواء ، بينما تقدح عيناه بالشر والشرر . وقد أخذ تيفون يقذف السماء بحجارة من لهب وهو يهدر ويفح ، بينما كان فمه ينفث ناراً بدلا من اللعاب . وقد ساد القلق من أن تكون لتيفون الغلبة على الآلهة والناس . غير أن زيوس ضربه بصاعقته من بعيد ، ثم ضربه بمنجله الحديدى من قرب ، وطارده حتى جبل كاسيون . فلما رأى التنين قد أصيب بجرح بليغ ، دنا منه ليصارعه يدا بيد . غير أن زيوس انحشر بين ثنيات التنين واستعصى عليه الحراك وكأنه وقع فى شراك . وعندئذ انتزع التنين المنجل من يده وقطع بها عصب يده وقدميه ، ثم حمله على كتفه وسار عبر البحر إلى كيليكيا بآسيا الصغرى حيث تركه فى كهف « السكيس الجلدى » . وهناك أخفى كذلك عصبه تحت جلد دبة وأقام التنينة دلفيى (Delphyne) حارسة عليه . ولكن هرميس ، رسول الآلهة ، والإله پان استطاعا أن يسرقا عصب زيوس ويرداه إليه . واسترد زيوس قوته وظهر من السماء فى عربته التى تجرها الجياد ، وتعقب التنين حتى جبل نيسا . وهناك خانته ربات القدر (Moirai) . فقد أعطينه فاكهة ليأكلها قائلات له إنها سترد إليه قوته . غير أن الفاكهة كانت تحمل اسم « ليوم واحد فقط » . ولذلك لم يجد تيفون مناصا من الفرار إلى سلسلة جبال هيموس (Haimos) بإقليم طراقيا ، حيث طفق يقذف حوله بالجبال ويلطخها بدمه (haima) ؛ ومن ثم جاء اسم هذه السلسلة الجبلية . وأخيرا بلغ صقلية حيث ألقى عليه

زيوس جبل إتنا كله . وما يزال هذا الجبل يقذف بالحمم التى انصبت على رأس التنين .

وأما آخر معركة خاضها زيوس وآلهة أوليمپوس فكانت ضد العمالقة. (Gigantes) وكان العمالقة ، كما أشرنا ، قد نبتوا من الدم الذى نزف من أورانوس وتسرب إلى رحم جايا بعد أن خصاه ابنه كرونوس . ويظهر العمالقة فى الرسوم القديمه فى صورة متوحشين لابسين جلود الحيوانات ، يطيحون بالصخور وجذوع الشجر أو فى صورة مخلوقات ضخمة هائلة ، نصفها الأسفل كأفاع توائم . ومن المعتقد أنهم ظهروا على سطح الأرض فى مكان معين ، وهو فليجرا (Phlegra) أى السهول الملتهبة ، أوفى باللينى (Pallene) بجنوب مقدونيا . وبينما وقفت جايا إلى جانب آلهة أوليمبوس فى حربهم ضد التيتانيس الجبابرة فقد وقفت فى هذه المرة ضدهم إلى جانب ابنائها الجيجانتيس العمالقة . وقد روى أيضا أن وحوش البحر ذوى الأذرع المائة ، كبرياريوس وزميليه ، قد وقفوا أيضا إلى جانب العمالقة يشدون من أزرهم . وشاع أن الآلهة لن يتغلبوا على العمالقة إلا بمساعدة الإنس أو بالأحرى بمساعدة إلاهين ينحدران من صلب نساء آدميات . ولم ينصر زيوس أخوته وأخواته فحسب ، بل نصره أيضا أبناؤه ، ومن بينهم اثنان أنجبتهما له زوجتان من البشر . وهذان البطلان الإلهيان ، ديونيسوس وهيرا كليس، هما اللذان رجحا كفة الآلهة على العمالقة فى القتال . ولقد كان

فى وسع العمالقة أن يسلموا من الهزيمة لو أنهم عثروا على عشب سحرى معين .
وقد حاولت جايا أن تجده لهم . غير أن زيوس منع الفجر من الطلوع ومنع الشمس والقمر من الظهور حتى وجد العشب السحرى بنفسه . وقد حفلت هذه المعركة ،التى شغف بها الشعراء والرسامون ، بالحيل والخطط الكثيرة وكان بين العمالقة واحد لا سبيل إلى قهره طالما كان مقيما فى موطنه . هذا العملاق حمله هيراكليس ، بعد أن جرحه بسهمه . عبر حدود پاللينى ، إلى مكان بعيد حيث هلك . . وهاجم عملاق كلا من هيرا وهيراكليس فى وقت واحد ، فأشعل زيوس فى صدره نار الشهوة فانقض على الربة يمزق ثيابها ؛ وعندئذ أنزل زيوس عليه صاعقته وصوب إليه هيراكليس سهمه . وعملاق آخر فقأ أبوللون عينه اليسرى بسهمه ، وفقأ هيراكليس اليمنى بنفس السلاح . وأما بلاس فقد انتزع جلد عملاق يحمل نفس اسمه ، واستخدمه كدرع يتقى به الضربات . وأما الربة آثينه فعلت بعملاق ما فعله أبوها من قبل بالتنين تيفون ، فقذفته بشىء لا يخطر لك أو يخطر لى على بال ، مهما جنح الخيال : لقد قذفته بجزيرة صقلية فى وجهه ! .

و بذلك تم انتصار زيوس وآلهة أوليمپوس ، لكن حدث بعد سقوط الجبابرة والعمالقة أن احتدم النزاع بين الآلهة والبشر الذين تبنى پروميثيوس (Prometheus) قضيتهم صد زيوس رب الأرباب ؛ وهذه قصة سنفرد لها فصلا مستقلا .

پوسيدون

(نبتونوس Neptunus)

وأما بوسيدون (Poseidon) فكان فيما يبدو يونانى النشأه ، وكان ، فى أول الأمر ، ربا للزلازل والماء لأن الإغريق وفدوا أصلاً من منطقة قارية ، ولكنه أصبح فيما بعد إلهاً للبحر . وبديهى أنه كان على جانب كبير من الأهمية فى نظر شعب كالإغريق يعيشون على البحر وترتبط حياتهم به كل الارتباط . وفى الحق أن بوسيدون كان يلى زيوس مباشرة فى جلال القدر والرفعة . وقد اختلف الباحثون فى تفسير إسمه ، إذ يرى فريق منهم أن المقطعين الأولين منه يتضمنان معنى الشراب أو الماء . ولعل لقب « مزلزل الأرض » (Enosichthon) — وهو من أهم ألقاب هذا الإله — يرمز إلى فكرة بدائية قديمة نشأت لتعليل ظاهرة الزلازل الطبيعية ، وهى تتجاوب والنظرية القائلة بأن الماء دخلا بالهزات الأرضية . على أن بوسيدون قد لقب أيضاً بمحتضن الأرض (Gaiaochos) ، وهو لقب ربما يعنى أنه كان زوجاً لربة الأرض . ومن ثم يرى فريق آخر أن اسمه — وهو Poteidan فى اللهجة الدورية — إنما يعنى زوج (Potei دا (Da) . ولما كان اللفظ الأخير هو صورة أخرى من صور جا (Ga)

أوجايا(Gaia)بمعنى الأرض ، أى زوج داميتير أو ديميتير أم الأرض أو ربة الأرض. وعلى أى حال فإن هذا الإسم يناسب إلها يرتبط بالماء التى تخصب الأرض.

وأما الأساطير فتقول إن بوسيدون كان . أحد أبناء كرونوس الثلاثة ، أى كان شقيقاً لزيوس وهاديس . ويقترن مولد هذا الإله بحيوانين هما الكبش والحصان . وقد ظهرت الآلهة فى بلاد اليونان ، وفى غيرها من أقطار البحر المتوسط ، فى صوره الكبش قبل أن تظهر فى صورة الحصان بحقبة طويلة. ويروى أن رهيا أخفت بوسيدون بعد ولادته بين قطيع من الخراف عند ينبوع يسمى أرنى (Arne) ، أى ينبوع الخراف ، وأنها خدعت أباه كرونوس الذى أراد أن يلتهم الطفل الرضيع — كما فعل بسائر أخوته — بإعطائه جواداً صغيراً أو مهراً بدلاً منه مثلما خدعته من قبل بإعطائه حجراً إلتهمه بدلاً من الطفل زيوس . وفى رواية أخرى أن حورية الينبوع التى عهدت إليها رهيا بالطفل بوسيدون لتقوم بحضانته كانت تحمل إسماً مختلفاً فى ذلك الحين ، ولم تكتسب اسم أرنى إلا بعد ما طالبها كرونوس برد إبنه إليه فأنكرت وجوده . فكأن الإسم لا صلة له بالخراف ، بل مشتق من فعل متشابه النطق ، بمعنى الإنكار. غير أن هذه الرواية فضلا عن أنها متأخره لا يمكن أن تكون صحيحة .

وثمة قصة أخرى يتزوج فيها بوسيدون وهو فى صورة الكبش. فقد هام بثيوفانى (Theophane) ، وهى إبنة ملك لمقدونيا ينحدر من صلب الشمس والأرض .

وكانت فتاة رائعة الحسن فاتنة الجمال تهافت الشبان عليها وتنافسوا فى طلب يدها . ولكن بوسيدون اختطفها إلى جزيرة تعرف باسم « جزيرة الكبش » . وعلى أى حال فإن القصة تمضى قائلة إن بوسيدون مسخ عروسه نعجة ومسخ نفسه كبشا،وكذلك فعل بسائرسكان الجزيرة . فلما تعقب الخطاب أثرهما استعصت عليهم معرفتهما.وأتم بوسيدون زواجه من ثيوفانى وأنجب منها كبشا ، وهو نفس الكبش الذى حمل فريكسوس إلى كولخيس ، وأدى إلى قيام ملاحى السفينة «أرجو» برحلتهم المشهورة لاسترداد فروته الذهبية . وفى رواية أخرى أن رهيا نقلت طفلها الرضيع بوسيدون إلى مكان أمين عند قوم من الصناع المهرة يدعون بالتلخيذيس (Telchines) ، وهم سكان جزيرة رودس فى العالم الآخر (السفلى) . وكانوا سحرة أشرارا يحرصون على أسرار صناعتهم كل الحرص. وقد صنعوا أول تماثيل للآلهة ، وصحبوا رهيا إلى كريت حيث ساهموا فى تربية زيوس الطفل . غير أنهم اشتهروا كمربين لبوسيدون . وقد عاونتهم فى ذلك المرضع كافيرا (Kapheira) ، إبنة أوقيانوس . وكان التلخينيس هم الذين صنعوا لبوسيدون حربته مثلثة الشعاب،التى كان يهز بها ما يشاء ويحطم ما يشاء . وقد ورد فى هذه القصة ذكر لأخت لهم تدعى هاليا (Halia) ، أى ساكنة اليم .فلما اكتملت رجولة بوسيدون وقع فى حب هاليا وأنجب منها ستة أبناء،وابنة تدعى رودس (Rhodus)، وهى

التى سميت باسمها الجزيره المعروفة . وقد حدث ذلك عندما انبثق العمالقة فى الجزء الشرقى من الجزيرة وفرغ ريوس من القضاء على التيتانيس. وكانت أفروديتى قد نبتت هى الأخرى من زبد الموج على مقربة من كيثيرا ، واتخذت طريقها إلى قبرص . غير ان أبناء بوسيدون، بما جبلوا عليه من قحة وتجبر، منعوها من النزول بالجزيرة . ولذلك اقتصت الربة منهم فأصابتهم بجنون زين لهم أن يضاجعوا أمهم . ولم يقترفوا هذا المنكر فقط بل عاثوا فى الجزيرة فسادا وأرهقوا سكانها بأفعالهم المشينة . فلما نمى ذلك إلى علم بوسيدون إنتقم من أبنائه لما ألحقوه بأمهم من وصمة وما ارتكبوه من إثم ، فواراهم فى باطن الأرض إلى الأبد حيث عرفوا منذ ذلك الحين «بأرواح الشرق» . وأما هاليا فقد ألقت بنفسها فى البحر وعرفت بعدئذ باسم ليوكوثيا (Leukothea) أى « الربة البيضاء » ، وعبدها سكان الجزر بوصفها ربة خالدة. وجدير بالذكر أن ابنتها رودس هى نفسها رودى (Rhode) ، التى قيل إنها إبنة أفروديتى أو أمفيتريتى .

ولبوسيدون مغامرة مع ديميتير . لقد كان الاسم دا (Da) — كما أسلفنا — اسماً قديماً للربة جا (Ga) أو جايا (Gaia) . ومن المحتمل أن ديميتير أو داميتير اكتسبت هذا الاسم بوصفها ربة الأرض ، وبهذه الصفة تزوجت بوسيدون . لقد جمع بين الإلهين ارتباطهما بالمزارع أو بالأحرى ارتباطهما بالعوامل التى تنظم شكلا معيناً من أشكال الحياة

الزراعية ، فاقترنت ديميتير بالقمح ، بينما اقترن بوسيدون بالحصان منذ دخلت تربية الخيول بلاد اليونان . وعند ما ارتبطت ديميتير مع زيوس برباط الزوجية ، كانت فى حقيقة الأمر صورة أخرى أو صنوا لرهيا ، الربة الأم ، فكأنها عند ما أنجبت برسيفونى أنجبتها من ابنها نفسه ، وكأنها تمخضت عن ذات نفسها من جديد ،وهو سر دينى لم يصل منه إلى مسامع الناس إلا طرف يسير . ولكنها عند ما ارتبطت ببوسيدون تزوجته بوصفها « الأرض » التى تنبت الزرع والحيوان ، فكان فى وسعها أن تنتحل شكل سنبلة من القمح أو فرسة من الفراس . ولقد روى أن بوسيدون عند ما شرع يطارد ديميتير ويطارحها الغرام ، كانت الربة مشغولة عنه بالبحث عن ابنتها برسيفونى التى اختطفها بلوتون . ولم يسع ديميتير إلا أن تتقمص صورة فرس وتختلط بالخيول التى ترعى فى مزرعة أحد الملوك . غير أن حيلتها لم تنطل على بوسيدون الذى كشف خدعتها وعاشرها بعد أن تمثل لها فى شكل حصان . وقد أثار ذلك حنق ديميتير فتحولت إلى ربة من ربات الغضب . وظلت تحمل هذا الاسم حتى انفثأ غضبها بالاغتسال فى نهـــر لادون (Ladon) ، فعرفت باسم ديميتير (Lousia) أى « المغتسلة » . وقد أنجبت من بوسيدون ابنة لا ينبغى أن يباح باسمها خارج قاعة الأسرار الدينية . كما أنجبت فى الوقت نفسه الجواد الشهير أريون (Arion) ، ذا العرف الأسود ، وهو عرف ورثه عن

أبيه كما ورد فى أقدم الروايات . وقد تزوج بوسيدون أيضاً ميدوسا الجورجون المتوحشة ، وأصبح عرفه الأسود حينئذ جدائل سوداء . وعند ما قطع برسيوس (Perseus) رأس ميدوسا ، وهو رأس له وجه ربة من ربات الغضب ، نبت من عنقها الجواد الشهير بجاسوس (Pegasus) ، وهو جواد سحرى ذو جناحين كان يحمل صاعقة زيوس ويرتبط بمدينة كورنثة كل الارتباط .

وقد تمثلت ديميتير — كما رأينا — فى صورة ابنة لا ينبغى لأحد أن يبوح باسمها . وهنا نقف على طرف من قصص الديانات السرية (mysteria) ، التى راجت فى بلاد اليونان . كذلك تمثل بوسيدون كثيرا فى صورة جواد . ومن أشهر القصص المعروفة قصة الحصان الأول الذى خلقه بوسيدون عندما تنازع وأثينه على ملكية أتيكا : فقد انبثق هذا الحصان من أرض أتيكا الصخرية على إثر ضربة من ضربات حربته مثلثة الشعاب. وفى رواية أخرى أن الإله غلبه النعاس على صخرة فى بلدة كولونوس (Colonus) بأتيكا ، فسال ماء لقاحه على الصخرة ، فأنبتت الحصان الأول الذى عرف باسم الملتوى (Skyphios) أو وليد الصخرة (Skironites) .

كما اقترن بوسيدون بأمفيتريتى (Amitphrite) ، وهى زوجته الشرعية التى أصبح بزواجه منها سيد البحر . على أنه لم يكن لأى إله حكم البحر من قبله أى صلة بالجياد ، فلا برياريوس ذو الأذرع المائة ، ولا نيريوس أو بروتيوس أو فوركيس ، « إله البحر القديم » ، ظهر فى أى صورة أو تحت أى إسم مرتبط بشكل الحصان. وقبل أن يكون هناك كائن كفرس البحر ، اعتاد إله فى شكل الثور أن يجر خلفه ربة عبر الأمواج. وقد اتخذ بوسيدون نفسه شكل الثور ، وكانت الثيران تنحر قربانا له بعد أن أصبح ربا للبحر. ذلك أن الثور أيضا ظهر على شواطىء البحر المتوسط قبل ظهور الحصان بحقبة طويلة . ولم تظهر أفراس البحر المشابهة للخيول (Hippokampoi) ووحوشه الأخرى (Centauri) التى كان جسمها الحيوانى الأسفل يجمع بين شكل الحصان وشكل السمكة ، وكذلك بنات أوقيانوس و بنات نيريوس (Nereides) ، ممن يحملن أسماء تنم عن طبيعتهن المشابهة لطبيعة الأفراس ، مثل هيبو (Hippo) ، جميع أولئك لم يظهروا فى البحر إلا بعد أن تربع بوسيدون على عرشه . وقد تحقق له ذلك عن طريق زواجه بأمفيتريتى. وكانت أمفيتريتى تعد سيدة البحر ، وتملك زمام أمواجه وتسيطر على وحوشه . ولقد روى أن بوسيدون أبصر بالربة وهى ترقص مع عرائس البحر ، من

بنات نيريوس ، فى جزيرة ناكسوس ، فاغتصبها عنوة . ولم تلبث أمفيتريتى أن فرت منه إلى الطرف الأقصى من عرب البحر ، إما إلى أطلس أو إلى قصر أوقيانوس . وقد تعقب بوسيدون أثرها طويلا وأخيراً دلته الحيتان على مكان اختفائها . وفى الحق إن حوتا هو الذى قادها إلى فراشه . وقد كوفىء الحوت بأن وضع بين الكواكب فأصبح برج الحوت.

ولقد أصبح بوسيدون — كما ذكرنا — بعد زواجه من أمفيترنيتى سيد البحر . وبذلك حل مكان نيريوس (Nereus) وهو إله قديم للبحر ، اشتهر بصدقه ونزاهته ووقاره وقدرته على التنبوء ومهارته فى تغيير شكله ، شأنه فى ذلك شأن بروتيوس (Proteus) . وقد ظهرت هذه المهارة أثناء اصطراعه مع هراكليس الذى استطاع فى النهاية تقييده بالأغلال لكى يدله على مكان التفاحات الذهبية . وقد أنجب نيريوس هذا من دوريس (Doris) خمسين عروسا من عرائس البحر كن تعشن معه فى أعماق اليم ، ومن بينهن كانت نيتس التى تزوجت پليوس (Peleus) ، بعد أن صارعته ، وأنجبت منه أخيليوس ، بطل الإلياذة . ومع أن بوسيدون شاد لنفسه قصرا فاخراً فى أغوار اليم ، إلا انه غالبا ما كان يقيم كأخوانه من الآلهة ، على قمة جبل أوليمبوس . وبإذنه كانت تهب العواصف ، وبإذنه كانت تسكن . فإذا ساق عجلته الذهبية على وجه الماء ، هدأ هدير الموج وانكسرت

شوكة الرياح الصرصر ، وأصبح سطح الماء كالصفحة الملساء . وكان الزوجان بوسيدون وامفيتريتي يشبهان زيوس وهيرا من وجوه كثيرة. فكما كان زيوس يدعى أحيانا «بزوج هيرا» ، كذلك كان بوسيدون ينادى «بزوج امفيتريتي، ذات المغزل الذهبي» . وقد نظم موكب عرسهما على غرار موكب ديونيسوس وأريادني . وفى هذا الموكب لم تظهر الخيول والثيران والكباش فحسب ، بل ظهرت أيضا الوعول والضباع والأسود والنمور كوحوش بحرية تمتطى صهوتها عرائس البحر من بنات نيريوس . ولقد قيل إن بوسيدون اشترك مع أبوللون فى بناء أسوار طروادة للملك لاوميدون (Laomedon) ، وإن ورد فى الإلياذة أنه بناها وحده ، بينما رعى أبوللون لهذا الملك ماشيته (Nomios) ، وعندما غشه لاوميدون وأبى إعطاءه أجره ، انتقم منه بأن أرسل وحشا من وحوش البحر عاث فى ارضه فساداً .

وقد كان لبوسيدون الذى لم يتزوج أمفيتريتي وحدها بل كثيراً من عرائس البحر (Nereides) وحوريات الينابيع (Naiades) والجنيات (Nymphae) والبطلات ، أبناء كثيرون قاموا بأدوار فى الأساطير . ولم يكن من بينهم أبطال فحسب ، بل كان بينهم مخلوقات متوحشة قهرها الأبطال ، كبوليفيموس (Polyphemus) السكيكلوبس الذى سمل أوديسيوس عينه الوحيدة مثيراً بذلك غضب بوسيدون عليه وانتقامه منه حتى أنه وضع

العراقيل فى وجهه أثناء عودته بحرا إلى وطنه إثاكا حيث كانت تنتظره المتاعب . وحسبنا ان نتكلم هنا عن أبناء پوسيدون من أمفيتريتى أو عن اثنين من اكثرهم شهرة : تريتون (Triton) ورودس (Rhodus) زبة الجزر.

وأما الأول فيسميه هسيودوس بذى القوة العريضة ، و يصفه بأنه إله عظيم يقطن فى قصر دهبى بقاع البحر مع أبويه . و يمضى الشاعر فيقول إنه كان إلهاً رهيباً ، و إن انهزم على يد هرا كليس فى حضرة « رب البحر القديم » ، الذى يبدو أن تريتون لم يبرع مثله فى تغيير شكاه . وكان مخلوقاً نصفه إنسان ونصفه الآخر سمكة أو حوت ، وفى الإمكان مقارنته بأحد الساتيروى (Satyroi) أو السيلينوى (Silenoi) ، وهم أرواح الغاب التى تصورها اليونان على أنها مخلوقات بشرية ضئيلة الجسم ، مشوهة الشكل ، بعضها فى هيئة الجدى ، جامح الشهوه شديد الإيذاء ، و بعضها الآخر له أذنان مدببتان وحافر وذيل حصان وأنف أفطس وطبع متمرد ، وتشاهد أحياناً وهى ترقص مع الحوريات أو فى صحبة ديونيسوس ، إله النبيذ أو پان (Pan) إله الرعاة أو غيرهما من كبار الالهة . وكان تريتون كأى سيلينوس أو ساتيروس جامح الشهوة ، مغتصباً للنساء ، بل مغتصباً للغلمان ، فى وسعه أن يثير الذعر فى قلب الناس و يضللهم ببوقه المصنوع من الصدف أو المحار . وسرعان ما تعدد تريتون وأصبح يوجد مثله كثيرون ذكور و إناث . وكان

الذكور يشاهدون عادة فى صحبة عرائس البحر من بنات نيريوس وهن يسبحن فى مواكب الزفاف وسط الأمواج ، احتفالاً بزواج بوسيدون وأمفيتريتى ، الذى أشرنا إليه ، أو ميلاد أفروديتى أو بتلك الطقوس الدينية التى قيل إن عرائس البحر أبحن بأسرارها للإنسان .

وأما قصة الربة رودس ابنة أمفيتريتى ، فتجرى وسط الأمواج المزبدة ، ولكنها تعرفنا فى الوقت نفسه بأسرة هليوس ، إله الشمس . ولا مراء فى أن اسم رودس يرتبط بكلمة رودون (rhodon)، بمعنى الوردة ، ارتباط الربة بالجزيرة سواء بسواء . ولقد روى أنه عندما كان زيوس والآلهة الآخرون يقتسمون الكون فيما بينهم ، كانت جزيرة رودس لا تزال مغمورة بالماء غير ظاهرة للعيان . ولم يكن هليوس قد حضر جلسة توزيع الكون ، ولذلك أسقطه الآلهة من الحساب فلم يظفر بأى نصيب . وفجأة تذكروا زميلهم الغائب ، فاقترح زيوس إلغاء التقسيم والبدء من جديد . غير أن هليوس رفض هذا الاقتراح وقال إنه يستطيع أن يتبين من بعيد قطعة خصبة من الأرض على وشك أن تطفو فوق سطح البحر . وناشد لاخيسيس (Lachesis) ، ربة القسمة والنصيب ، أن ترفع يديها وتحلف هى وسائر الآلهة من أبناء زيوس أن يكون من نصيبه أى شىء يبرز آنئذ من جوف الماء . ولقد صدق حدسه ، لأن الجزيرة انبثقت من الماء الأجاج لتتوق إلى رب أشعة الشمس ، سائق العجلة التى تجرها جياد تقذف باللهب .

وفى الجزيرة تزوج هليوس من الربة رودس ، وأنجب منها الأولاد .
ولقد كانت الجزيرة والربة فى الأصل شخصا واحداً ، مثلما كانت ديلوس
واستيريا (Asteria) ربة النجوم ومثلما كانت لمنوس ، جزيرة هيفايستوس
وربتها الكبرى كابيريا ، التى حملت أيضا اسم لمنوس .

لقد اشتهر بوسيدون فى الديانة اليونانية كإله للبحر ، وعبد دائما
مرتبطا بالبحر والملاحة . كما عبد أحيانا كإله للماء العذب وأحيانا أخرى
كرب للزلازل . وقد شيد له أهل رودس معبداً فى جزيرة ثيرا البركانية
حيث عبد باسم أسفاليون (Asphalion) أى مثبت الأرض وواقيها من
الهزات . ومن الطبيعى جداً أن يصبح بوسيدون بوصفه إلها للماء ربا للنبات،
وأن يعبد أحيانا على هذا النحو فى أنحاء كثيرة من بلاد اليونان . غير أنه من
العسير تفسير السبب الذى من أجله أصبح بوسيدون ربا للجياد (Hippios).
ومن المستبعد أن يكون هذا اللقب قد نشأ عن تشبيه الأمواج بالجياد
البيض لأن مثل هذا التشبيه لا تعرفه اليونانية ؛ وإن كان أحد الكتاب
اليونان قد عزا السبب إلى أن السفن فى البحر تشبه الجياد فى البر باعتبارها
وسيلة من وسائل الانتقال . غير أن ذلك أمر بعيد الاحتمال لأن الألقاب
الدينية قلما تتولد عن الصور البلاغية أو المحسنات البديعية . على أنه من
الجائز أن يكون بوسيدون قد اكتسب هذا اللقب ، لقب إله الجياد ،

من أن القوم الذين عبدوه كانوا أنفسهم من مربى الجياد . وقد يؤيد هذا الرأى أن عبادة بوسيدون على هذا النحو نشأت أصلا فى ساليا ، وهو إقليم اشتهر بتربية الخيول والفروسية . وقد ارتبط بوسيدون فى العصور قبل التاريخية بقوم يعرفون بالمنيين(Minyae) (نسبة إلى الملك الأسطورى Minyas) ، وهم قبيلة كانت تسكن أرخوميوس بإقليم بويوتيا ويولكوس فى ثساليا . وارتبط فى العصور التاريخية بالأيونيين ، وإن كانت عبادته قد انتشرت فى مناطق كثيره من العالم اليونانى . لكن على الرغم من انتشار عبادته وتمتعه بقدر كبير من الإجلال كإله قديم وبخاصة بين الأسر المحافظة ، إلا أنه لم يتطور بتطور المثل الدينية والأخلاقية ، على نقيض زيوس وهاديس نفسه . ولعل من بين الأسباب أن هذه المثل اقترنت باتجاه عام نحو التوحيد ، ومن ثم لم يترك زيوس متسعا لغيره من الآلهة .

هاديس

(بلوتون Pluto)

وأما هاديس (Hades) ، شقيق زيوس وبوسيدون ، فكان إله العالم السفلى أو عالم الموتى الذى يعرف أيضاً باسم هاديس . وجدير بالذكر أنه كان إله الموتى لا الموت نفسه الذى عرفه اليونان باسم ثناتوس (Thanatos) والرومان باسم أوركوس (Orcus) . وقد اشتهر هذا الإله كذلك باسم بلوتون ، أى مانح الثروة ، وهى الكنوز الكامنة فى باطن الأرض ، وإن كان الأرجح أنها الثروة الزراعية نظراً لارتباط هـذا الإله ببرسيفونى ، ابنة ديميتير ربة القمح ، التى كان هذا المحصول يظهر بظهورها على الأرض ويختفى باختفائها . كما عرف بين اليونان باسم بلوتوس (Ploutos) . أى الغنى ، وهو ما ترجمه الرومان إلى اللاتينية بلفظ ديس (Dis) . وكان لهذا الإله خوذة شهيرة تخفى من يلبسها عن الأنظار . وفى الحق إن الإسم (Hades) هو صورة أخرى من كلمة aides أو ais التى تتضمن معنى المنزل أو القصر ، ثم أصبحت تعنى « الخفى » الذى لا تراه العين أو من يخفى الكائنات على نقيض هليوس ، إله الشمس المنظور الذى يكشف الكائنات للعين . وقلما كان يترك

مملكته المظلمة ليزور أو ليميوس أو الأرض ، ولا كان هناك من يدعوه إلى زيارته ، إذ كان ضيفا ثقيلا وزائراً غير مرغوب فيه . وكان هاديس ، مضيف الأرواح الكثيرة (Polvdegamon) إلها قاسيا لا يرحم ، عنيدا لا يلين ، ورهيباً ترتعد الفرائص منه . ولذلك نجد رأسه مرسومة على أحدى الأوانى الفخارية وهى مدارة إلى الخلف ، لأنها رأس من لا ينبغى لأحد أن يمعن النظر إليه ، رأس الإله الرهيب الذى يورى الأحياء ويحجبهم عن الأنظار .

ولم يتزوج هاديس ، على نقيض أخويه زيوس وبوسيدون ، من أخته ديميتير ، و إنما اغتصب ابنتها برسيفونى (Persephone) التى عرفها الرومان باسم بروسربينا (Proserpina) ، واشتهرت أيضاً بلقب كورى (Kore). أى الابنة العذراء. ويرتبط اسمها ببيرسى (Persê) وپرسيس (Persis) و (Perseus) ومشتقاتها وكلها أسماء حملتها الربة هكاتى ، ورفيقاتها واستعملت قبل مجىء اليونان إلى بلادهم للدلالة على ملكية العالم السفلى أو عالم الموتى . وأما لقب « الإبنة العذراء » فقد اكتسبته بوصفها الإبنة الأولى والوحيدة لأمها ديميتير التى فقدتها . وتمثل قصة اختطافها على يد خالها هاديس ، قصة تأسيس مملكة الموتى ونشأة طقوس إليوسيس السرية . فقد حدث أن كانت الفتاة برسيفونى تلعب مع صويحباتها من بنات أوقيانوس فى أحد المروج النضرة ونقطف معهن الزهور : الورد والبنفسج والسوسن والزعفران

والزنبق . وما أن رأت برسيفونى النرجس حتى فتنها جماله فابتعدت عن رفيقاتها وهمت باقتطافه بكلتا يديها . وفجأة انشقت الأرض عن هوة سحيقة خرج منها هاديس، إله الموتى، راكبا عربته الذهبية التى تسوقها جياد داكنة . وانقض على الفتاة وحملها معه على الرغم منها غير آبه بمقاومتها وصراخها الذى مزق سكون الفضاء ورجعت قمم الجبال وأعماق البحر صداه . ولم يسمع زيوس صراخ ابنته ، وإن كان اختطافها قد تم برضائه ، لأنه كان حينئذ فى مكان قصىّ عن الآلهة يتقبل القرابين فى معبده المختار . لكن آلهة آخرين مثل هكاتى وهليوس وديميتير نفسها سمعوا صرختها المدوية . وانفطر قلب الأم حزنا على وحيدتها ، فمزقت غطاء رأسها وأزاحت عن كتفيها ثوبها الأسود وهامت على وجهها تبحث عن ابنتها فى كل مكان. ولم تجد ديميتير بين الآلهة والناس من يقول لها الحقيقة . وطفقت تمشى فى الأرض تسعة أيام حاملة فى يديها شعلتين وهاجتين . وفى حزنها لم تذق طعم الأمبروسيا ولم ترشف شفتاها النكتار ولم تغسل جسمها بماء . وفى اليوم الثالث من بحثها التقت بهكاتى التى قالت لها إنها سمعت من كهفها صرخة برسيفونى ولكنها لا تعلم من خطفها ولا أين أخفاها . وأخيرا أطلعها هليوس إله الشمس ، على الحقيقة كاملة ملقياً التبعة على عاتق زيوس الذى سمح لأخيه أن يتخذها زوجة لتتربع معه على عرش مملكة الموتى . وغمر الأسى ديميتير وغلبها اليأس . ولم يلبث أن استبد بها الغضب فهجرت أوليمبوس

حانقة على ريوس ، ونزلت إلى دنيا البشر لتجول فى مختلف بلادها . وقد أهملت الربة مظهرها فبدت كأنها عجوز شمطاء من المستحيل أن يعرفها أحد . وأخيرا التقت بها بعض فتيات كن يملأن جرارهن من بئر قريب ، فرثين لحالها وسألنها ماذا تفعل فأجابت إنها فرت من قراصنة كانوا يريدون بيعها فى سوق الرقيق ، وأنها لا تعرف أحداً فى هذا المكان الغريب لتسأله المعونة . وقالت لها الفتيات إن أى بيت بالبلدة مستعد لإيوائها والترحيب بها . وطلبن منها أن تنتظرهن ريثما يسألن أمهن ويعدن إليها . ولم تكن هذه الفتيات سوى بنات متانيرا (Metaneira) زوجة كليوس (Celeus)، ملك إليوسيس (Eleusis)، بإقليم أتيكا وقد أمرت الملكة بناتها باستدعاء اللاجئة إلى القصر فى الحال . وتبعت السيدة العجوز بنات كليوس إلى القصر حيث استخدمتها متانيرا مرضعا لطفلها الوليد لقاء أجر سخى . وما أن دخلت ديميتير القصر حتى انتشرت فى أرجائه هالة من النور الربانى وعقدت الدهشة لسان الملكة وامتلأ قلب وصيفاتها بالرهبة . وجلست الربة فى هدوء مسدلة غطاء رأسها على محياها السنىّ ، واستسلمت للحزن العميق على ابنتها الوحيدة . غير أن وصيفات القصر استطعن أن يسرين عنها حتى انجاب عن صدرها الهم وانفرجت أسارير وجهها وافترت شفتاها عن ابتسامة عذبة ، وما لبثت أن ضحكت . ولما قدمت إليها متانيرا قدحا من النبيذ الحلو ، رفضته قائلة إنه لا يجوز لها أن تشرب النبيذ الأحمر ،

وطلبت عوضا عنه شرابا من شعير ممزوجاً بنعناع حتى تستطيع أن تشر به. وتعهدت بحضانة الطفل ووعدت أمه أن تكون له خير مرضع، لأنها تعرف أيضا جميع أنواع الرُقى التى تقيه الشر والحسد. وما لبثت أن أخذت بيديها المقدستين ديموفون (Demophoon) بن كليوس وضمته فى حنان إلى صدرها العطّر. ونما الطفل كما ينمو إله دون أكل أو شراب. وضمخت الربه جسمه بالامبروسيا ونفخت فيه من أنفاسها العطرة. وقد شاءت أن تمنحه الخلود فدأبت على أن تعرضه فى كل مساء، دون علم أبويه، لوهج نار مستعرة. وأوشكت أن تحقق له الشباب الدائم لولا أن متانيرا اختلست النظر ذات ليلة من باب الحجرة ورأت ما كان بصنع بالطفل، فصرخت بأعلى صوتها ولطمت نفسها بيديها وطفقت تولول نادبة حظ ابنها. وسمعتها الربة فتملكها الغضب. وانتزعت الطفل من النار ووضعته على الأرض قائلة للملكة فى حنق ظاهر « أنتم أيها البشر جهلة حمقى لا تتبينون الخير أو الشر. لقد ألحقت بنفسك ضررا لا سبيل إلى علاجه بسبب رعونتك. وأقسم بكبار الآلهة، و بحياة نهر استيكس (Styx)، أننى كنت سأجعل ابنك خالدا يتمتع بشباب دائم، وشهرة لا تفنى. وأما الآن فلا مندوحة له عن الموت كسائر البشر، وإن كان سيظفر بالشهرة الأبدية لأنه جلس فى حجرى ونام بين ذراعى. ولسوف تقوم الحروب دائما بين سكان إليوسيس فى أوقات معلومة من أجل تمجيده. وأما عن نفسى، فأنا ديميتير، الإلهة

العبادات جميعا ، ورية النعمة الـكبرى ، التى ندخل أعظم البهجة على قلوب الآلهة . وعليك الآن ، أنت وقومك ، أن تشيدوا لى معبدا عظيما ومذبحا فوق قمة التل تحت أسوار المدينة . ولسوف أعلمكم الشعائر السرية حتى تؤدوا لى فى مستقبل الأيام فروض العبادة التى تشرح صدرى وتبعث الطمأنينة فى نفسى » .

وفرغت الربة من الكلام بعد أن أظهرت آياتها وعادت سيرتها الأولى واستردت هيئتها الحقيقية . فلم تعد ، كما كانت ، عجوزا شمطاء ، بل غدت سيدة باهرة الحسن يضوع الشذى من ردائها ويشع النور من جسدها وتتهدل على كتفيها جدائل من الشعر الذهبى وتمتلىء حجرتها بالسنا والضياء وكأنها زخرت بوميض البرق الوهاج . وغادرت الربة قصر كليوس إلى غير رجعة . وعندئذ خرت الملكة مغشيا عليها فاقدة النطق لا تستطيع حراكا ، أو التفكير فى حمل ابنها من الأرض ، وسمعت بناتها الطفل وهو يصرخ فقفزت من فراشهن ، والتقطته إحداهن وضمته إلى صدرها ، وأوقدت الأخرى نارا ، وجرت الثالثة إلى أمها لتساعدها على النهوض وتحملها إلى غرفتها ، غير ان الطفل لم يكف عن العويل برغم ما لقيه من رعاية ، وعبثا حاولت الوصيفات تهدئة روعه بعد أن افتقد مرضعه الحنون . وقضت بنات كليوس الليل كله فى الصلاة للربة ، وفرائصهن ترتعد فرقا . فلما طلع الفجر

أخبروا كليوس بما وقع وما أمرتهم به الربة ، فجمع قومه واستحثهم على أن يبنوا معبدا فخما ومذبحا لديميتير فوق التل . وامتثل رعاياه لأمره وارتفع بمشيئة الآلهة .

وعندما فرغوا من بنائه عادوا أدراجهم كل إلى بيته . وجلست ديميتير فى المعبد بمنأى عن سائر الآلهة تبكى ابنتها . ومضت على الأرض سنة عجفاء لا زرع فيها ولا ضرع ، حافلة بألوان البؤس والشقاء لبنى الإنسان. فلا ثمار نبتت من الحب لأن ديميتير حجبت كل شىء فى جوف الأرض ولا زهور أينعت فى الرياض بعد أن حولتها الربة إلى قفار . وعبثا كانت الثيران تجر المحاريث فى الحقول ، وعبثا كانت البذور تلقى فى شقوق الأرض . ولولا أن تدارك زيوس الأمر بحكمته لهلك الناس من شدة القحط . ولولاه ما عمرت معابد الآلهة بالمصلين أو عبقت بدخان ذبائح القرابين . فقد بادر زيوس بإرسال إيريس (Iris)[1] ، الربة الجميلة ذات الجناحين الذهبيين ، لإحضار ديميتير . وصدعت إيريس للأمر وانطلقت إلى إليوسيس . وهناك وجدت ديميتير فى المعبد مدثرة فى رداء قاتم . وتوسلت إليها أن تعود إلى أوليمبوس ، ولكن توسلاتها ذهبت هباء . وعندئذ أوفد إليها زيوس جميع الآلهة ، فأقبلوا عليها واحدا بعد الآخر حاملين إليها أثمن الهدايا . ولكن أحدا لم

---

(١) وهى غير إريس (Eris) ربة الشقاق .

يستطع أن يلين قلب الربة الغاضبة أو يحملها على نقض ماقررته. فقد قررت ألا تطأ قدماها قصر الأرباب فوق أولمبوس ، وألا تدع الأرض تثمر ثانية حتى ترى ابنتها .

وعند ما علم زيوس ذلك أوفد هرمس ، صاحب العصا السحرية ، إلى عالم الموتى لكى يحمل هاديس بكلامه المعسول على إخلاء سبيل پرسيفونى ويعود بها من عالم الظلام إلى عالم النور . وأطاع هرمس أمر سيده ، فغادر قصره الأولمبي متجها صوب أعماق الأرض . وهناك وجد هاديس متكئا على أريكة بجانب فراش زوجته التى انكمشت خجلا وخوفا وكادت تذوب أسى على فراق أمها . ووقف هرميس أمامهما وأنبأ هاديس ، ذا الشعر الفاحم ، سبب مجيئه وشرح له فحوى رسالته . وافتر ثغر هاديس عن ابتسامة شاحبة وأجاب أنه سوف يمتثل لأمر زيوس والتفت إلى زوجته قائلا « پرسيفونى ، فلتذهبى إلى أمك الربة ذات الرداء القاتم ، إرجعى إليها بقلب مبتهج فلن يغمر فؤادك بعد اليوم حزن أو هم . ولسوف أكون من بين الخالدين زوجا جديراً بك . أو لست أنا شقيق زيوس ، رب الأرباب ؟ فإذا قدر لك أن تأتى هنا فى بعض الأحيان فلسوف تحكمين الكائنات جميعا ، وتلقين أعظم آيات التكريم بين الآلهة . ولئن امتهنك أحد ، كائنا من كان ، أو لم يقدم لك ما يليق بك من قربان ، ليكفرن عن ذلك تكفيراً أبديا » .

وما أن فرغ من كلامه حتى وثبت برسيفونى على قدميها من شدة الفرح ، غير أن زوجها بيعها خلسة ووضع فى فمها حبة حلوة من حب الرمان حتى لا تبقى دائما بجانب أمها . وشد جياده السود إلى عجلته الذهبية وركبت الفتاة إلى جانب هرمس الذى أمسك بأعنة الخيل وألهبها بسوطه فانطلقت طائرة فى الهواء تنهب الفضاء نهبا . فلا بحر أو نهر أو منحدر استطاع أن يعترض سبيلها أو يوهن اندفاعها . فقد حلقت الجياد فوق هذا كله وشقت طريقها عبر الهواء قاطعة المسافة الشاسعة بسرعة مذهلة ، وأوقف هرميس عربته حيث كانت تجلس ديميتير أمام معبدها الذى تفوح منه رائحة ذكية . وما أن رأت ابنتها حتى وثبت فى نشـــوة وكأنها إحدى المجنونات (Maenades) بباكخوس (Bacchus)[1] تهيم وسط الجبال قارعة بالدف فى الليل البهيم . واندفعت برسيفونى من العربة وارتمت فى أحضان أمها . وبينما كانت الربتان تتعانقان ، سألت ديميتير إبنتها إن كانت قد أكلت أى طعام فى قصر هاديس . فإذا كانت قد فعلت ، فلا بد من أن تمضى ثلثا من السنة فى العالم السفلى ، فلا تبقى إلى جانب أمها سوى ثلثيها الآخرين ، على أن تعود إليها دائماً مع بداية الربيع ، فصل إيناع الثمر وإزدهار الشجر ونضج القمح وشيوع البهجة فى كل مكان .

---

(١) اسم آخر من أسماء ديونيسوس (Dionysus) إله النبيذ .

وقصّت برسفونى على أمها كيف تسلل هاديس وراءها خفية فى لحظة فرحتها بالعودة إليها ، وكيف دس فى فمها حبة الرمان ، وأرغمها على أكلها . واسطردت تروى لها كيف اختطفها عمها بينما كانت تلعب فى المروج وتقطف الأزهار مع بنات أوقيانوس وأثينه وأرتميس . وقضت برسيفونى وديميتير سحابة اليوم كله تتناغيان فى شوق وحنين وتتبادلان أعذب ألفاظ الحنان . وقد جاءتهما هكاتى مرحبة بعودة الأبنة المقدسة ، ولم تفترق هكاتى عن الربتين منذ ذلك الحين . وأما زيوس فقد بعث إليها بأمه نفسها « رهيا » لكى تناشدهما العودة إلى أوليمپوس . ووعد رب الأرباب بأن يسبغ عليهما من آلائه ما تشاءان ، وأن تقضى برسيفونى من كل عام شطره الأكبر فى كنف أمها بجانب بقية الآلهة الخالدين . وهبطت رهيا إلى مكان بالأرض كان بالأمس أخضر يانعاً فأصبح من حزن ديميتير قحلا بلقعا . والتقت رهيا بالربتين وأبلغتهما مشيئة زيوس وما وعد به . وتوسلت إلى ديميتير أن تدع القمح ، مانح الحياة للناس ، ينمو من جديد . واستجابت ديميتير فأثمرت الحقول وامتلأت بسنابل القمح . واتجهت الربة إلى إليوسيس حيث لقنت ملوكها الشعائر المقدسة وأطلعتهم على أسرار العبادة ، تلك الأسرار التى لا ينبغى إفشاؤها أو سماعها أو حتى ترديدها بصوت مرتفع ، لأن رهبة ديميتير كفيلة بخنق الصوت فى الحلق قبل التفوه بها . فلتحل البركة بمن أسعده الحظ برؤية هذه الشعائر !

وما أشقى من يظل غير مطلع عليها أو غير مشترك فيها ! فلن يكون له ، وهو فى ظلمة العالم السفلى ، نصيب بعد مماته فى مثل هذه النعم.

و بعد أن فرغت ديميتير من إصدار تعاليمها صعدت هى وابنتها برسيفونى إلى قمة أوليمپوس حيث اندمجتا فى زمرة الآلهة . وهناك أقامتا بالقرب من زيوس ، وحظيتا بأعظم آيات التمجيد . ألا بورك فى الرجل الذى تؤثره هاتان الربتان بالحب ! فلسوف تبعثان إليه ببلوتون ، إله الثروة ، لينزل ضيفاً عليه فى وسعه أن يغدق المال بغير حساب على الناس أجمعين .

آريس

(مارس Mars)

كان آريس (Ares) ، بن زيوس وهيرا، إله الحرب . ويحدثنا هوميروس بأن أبويه كانا يمقتانه ، ويصوره إلها بغيضا حتى فى الإلياذة ، مع أنها ملحمة تتغنى بالطعن والنزال . وقد يبتهج الأبطال أحيانا بخوضه المعركة ، غير أنهم غالبا ما يبتهجون بنجاتهم من غضبه . فقد كان إلها قاسيا متحجر القلب لا يرحم . ويندد به هوميروس فيصفه بالقاتل، الملطخ بالدماء ، وأنه لعنة على البشر (ara) . ومن الغريب أيضا أن يصفه بالإله الجبان الذى يصرخ من الألم عندما يصاب بجراح . غير أن آريس كان له دائما حفنة من الاتباع فى ميدان القتال تعمل على بث الشجاعة فى نفوس المحاربين . وتظهر إيريس (Eris) ربة الشقاق ، كأخت له فى الإلياذة وتمشى ربة الحرب إنيو (Enyo) — وهى بللونا(Bellona) فى اللاتينية — إلى جانبه فى معظم الأحيان ، وفى ركابها يمشى « الرعب » « والارتجاف » و « الفزع » ، وفى أعقابها تتصاعد أنات المجندلين وتسيل الدماء فى الأرض كالأنهار .

وقد أحب الرومان آريس الذى عرفوه باسم مارس أكثر مما أحبه اليونان . ولم يكن مارس عندهم ذلك الإله الهزيل الرعديد الذى يصوره

هوميروس ، بل كان إلها مهيبا ، لامع الدرع ، براق السلاح ، رهيبا لا يقهر . ونجد المحاربين فى الأينيادة — ملحمة الرومان الكبرى — يطربون لسقوطهم فى ميدان مارس ، أى فى حومة الوغى ، مجال الشهرة الأبدية ، و يندفعون إلى الردى ليحرزوا المجد ، و يستعذبون الموت فى المعركة.

ولم تنسج حول آريس سوى قليل من الأساطير . وأطرفها جميعا تلك التى تروى أن آريس هام حبا بأفروديتى ، وأن الربة بادلته هذا الحب . وقد حدث ذلك فى قصر زوجها هيفايستوس ، ووراء ظهره . و بذل آريس قصارى جهده حتى نال منها بغيته . ورأى هليوس ، إله الشمس ، العشيقين فى خلوتهما ، فأخبر من فوره هيفايستوس ، إله النار والحدادة . وقد حز الخبر فى صدره ، فأسرع إلى كوره حيث جالت بخاطره أفكار سوداء . وأعد سندانه الضخم ، وصنع سلاسل من الحديد يستحيل تحطيمها أو فكها . على أن هذه السلاسل كانت على متانتها أشبه بشبكة دقيقة النسيج حتى لا تكاد تراها العين وكأنها خيوط العنكبوت . وعلقها هيفايستوس فوق قوائم سريره . وارتحل أو هكذا زعم ، إلى لمنوس، جزيرته المفضلة و بذلك تهيأت الفرصة التى طالما ترقبها العاشق الولهان . ودخل آريس قصر أخيه الغائب وهو يتحرق شوقاً إلى لقاء أفروديتى الجميلة التى كانت قد عادت من زيارة أبيها زيوس منذ لحظات. وأمسك آريس بيدها فسرت فى أوصاله نار الشهوة الجامحة، ودعاها إلى مضاجعته . ولم تتمنع أفروديتى عليه لأنها لم تكن أقل منه

رغبة. وضمهما فراش أثيم وأسكرتهما النشوة فاستسلما للنوم العميق .. وسرعان ما أطبقت عليهما الشبكة الحديدية التى صنعها هيفايستوس، فاستحالت عليهما الحركة ووجدا نفسيهما مقيدين بأغلال لا يستطيعان منها فكاكا وأدركا من فورهما أنهما قد وقعا فى شراك متين .

وفاجأ هيفايستوس العشيقين متلبسين بالجريمة ، لأن هليوس ، إله الشمس ، الذى كان يراقبهما من بعيد ، فضح سرهما للزوج المسكين . ووقف هيفايستوس عند باب الغرفة يرغى ويزبد ، ثم نادى بصوت رهيب جميع الآلهة قائلا «أى زيوس . أيها الأرباب ، تعالوا اشهدوا أى مهزلة تجرى فى رحاب هذا المنزل ، تعالوا اشهدوا كيف تلحق بى أفروديتى ، إبنة زيوس ، العار دائما لأنى رجل مشوه ! إنها تحب آريس المهلك ، لأنه وسيم ، وساقاه سليمتان ، بينما أنا أعرج . لكن والداى هما الملومان على ذلك ، فما كان ينبغى أن ينجبانى ويا ليتنى ما ولدت ! . أنظروا كيف يستلقى فى فراشى هذان العاشقان اللذان أسكرتهما خمر الحب ! . إنهما ليؤذيان بصرى أشد الإيذاء . ويبدو لى أنهما سيظلان كذلك فترة طويلة لأنهما يحبان أحدهما الآخر حبا عنيفا . لكن سرعان ما سوف يزهدان فى الرقاد ، عندما يحسان بأن السلاسل التى تقيدهما محكمة كل الأحكام ، ولن أخلى سبيلهما حتى يرد لى زيوس ما قدمته له من هدايا من أجل ابنته الوقحة المتبذلة . إننى لا أنكر أنها جميلة ، ولكنها أبعد الإلهات عن الطهر والعفة » .

وتجمع الآلهة فى قصره ذى المدخل النحاسى . وقد حضر إليه بوسيدون وهرميس وأبوللون . وأما الإلهات فقد منعهن الحياء من الحضور فلزمن بيوتهن . ووقف الآلهة عند باب الغرفة . وأغرقوا فى الضحك عندما رأوا مادبره هيفايستوس من حيلة ماكرة للإيقاع بالعشيقين . وقال أحدهم للآخر « لا خير فى الفحشاء ولا جدوى من المنكر . لقد أمسك البطىء بالسريع . إن من يزنى لا بد له من التكفير عن خطيئته » . ثم سأل أبوللون هرميس : « أتحب ياهرميس أن ترقد مقيدا بالأغلال إلى جانب أفروديتى الذهبية ؟ » فأجابه هرميس : « آه لو استطيع ذلك ، وإن قيدت بسلاسل أقوى من هذه ثلاث مرات ، وإن حضرتم جميعاً أيها الآلهة لتروني، فكم أتمنى أن أسترخى بجانب أفروديتى الذهبية » وضج الآلهة بالضحك ، ما عدا بوسيدون الذى توسل إلى رب الصناع أن يطلق سراح آريس ، واعدا إياه باسم جميع الآلهة أن يكفر له آريس عن خطيئته . ووافق هيفايستوس بعد تمنع وفك قيد العشيقين اللذين انطلقا خارج القصر . وقد رحل آريس إلى طرافيا ، ورحلت أفروديتى إلى معبدها فى بافوس بجزيرة قبرص حيث استقبلتها ربات البهاء فى ترحاب وقدنها إلى الحمام حيث اغتسلت . ثم مسحن جسمها اللدن بذلك الزيت الخالد الذى يفوح شذاه دائما من الآلهة ، ثم دثرنها ثانية فى ردائها الزاهى البهيج .

أبوللون

(فوبوس أپوللون Phoebus Apollō)

لقد سبقت الإشارة إلى أبوللون (Apollon) أكثر من مرة. ولد هذا الإله لزيوس من الربة ليتو (Leto) بجزيرة ديلوس ، أصغر مدن الـكيكلاديس (Cyclades) بالبحر الإيجى . وقد وصف بأنه أقرب الآلهة إلى الروح اليونانية ، وأما فى الشعر فقد وصف بالإله الوسيم ، والموسيقى الأول (Kitharados) الذى يطرب الآلهـة عندما يعزف بقيثارته الذهبية . كما كان سيد القوس الفضى ، ورب الرماية الذى يطلق السهم إلى أبعد المسافات؛ ورب الشفاء الذى كان أول من علم الناس فن التطبيب . وكان أبو للون ، فوق ذلك كله ، إله النور الذى لا يشو به أى ظلام، ومن ثم أصبح إله الحق الذى تنطق شفتاه بالباطل أبدا . وكانت دلفى تحت سفوح جبل برناسوس ، بصخرتهـا المقدسة المشهورة باسم أومفالوس ، أو السرة ، هى مكان نبوءته . وتبرز دلفى التى توهم اليونان أنهـا مركز الأرض كثيراً فى الأساطير اليونانية . ولم يـكن هناك معبد يفوق معبدها فى ذيوع الصيت ولا نبوءة تبز نبوءتها فى الشهرة . فـكان الناس يأتونه من كل فج عميق ، بعضهم من بلاد اليونان ، و بعضهم الآخر من بلاد

أجنبية . وكانت الإجابات على أسئلة السائلين من طلاب الحق أو ملتمسى النصيحة تدلى بها كاهنة تدعى بيثيا (Pythia) (أى امرأة بيثون Python — وهو اسم قديم لدلفى) . وكانت هذه الكاهنة تستوى على مقعد مثلث القوائم ، وتتقمصها روح الإله ، فتروح فى غيبوبة طويلة ، وتعتريها حالة من الهذيان قبل أن تنطق بوحيه . وغالباً ما كانت تدلى بالنبوءات فى اليوم السابع من الشهر ، وهو يوم ميلاد الإله . وقد عرف أبوللون بالدبلى ، نسبة إلى ديلوس ، مسقط رأسه ، و بالبيثى نسبة إلى بيثون التنين أو الحية الضخمة الرهيبة التى كانت تسكن فى كهوف برناسوس وتحرس صخرة دلفى المقدسة ، ثم قتلها الإله بعد صراع رهيب بسهمه الذى لا يطيش . وكان من بين ألقابه الأخرى لقب الليكى إما بمعنى الإله الذئب الذى يبسط حمايته على الرعاة فى البرارى و يصد عن قطعانهم عدوان ذلك الحيوان المفترس ، أو إله ليكيا (Lycia) نظراً للصلات العتيدة التى تربطه بهذا الإقليم الآسيوى ، و بخاصة طروادة . وكثيرا ما قرن أبوللون بالشمس حتى وصف بأنه إله الشمس ، كما يتضح من لقبه فويبوس (Phoibus) الذى يعنى المضىء أو الطاهر أو المطهر ، وإن كان هليوس (Helios) هو إله الشمس الحقيقى عند الإغريق .

لقد كان أبوللون الدلفى قوة خيرة ، ورباطاً مباشراً يصل بين الآلهة والناس ، وهاديا للبشر ليعرفوا إرادة السماء ، وكيفية استرضاء الآلهة . وكان

فوق ذلك إله التطهير (katahrsis) الذى فى وسعه أن يطهر من الدنس حتى من تلوثت أيديهم بدماء ذوى الأرحام . ومع هذا فإن أبوللون يظهر فى بعض القصص كإله قاس لا يرحم . لقد اصطرعت فيه ، كما اصطرعت فى غيره من الآلهة ، فكرتان متناقضتان .

وقد كان له دور أيضاً فى سياسة اليونان . فإلى مركز نبوءته فى دلفى اعتادت الدول أن توفد بعثات لتسأله المشورة عندما تزمع إنشاء المستعمرات . ولقد عرف بحياده فى معظم الأحوال ، وإن حابى الطرواديين فى الإلياذة محاباة ملحوظة . ولم يخرج عن هذا الحياد خروجا صارخا إلا عندما انحاز للفرس فى الحروب الميدية ، ووقف إلى جانب الإسبرطيين فى الحرب البلوبونيزية .

والخلاصة أن أبوللون كان إلها متعدد الاختصاصات ، فكان إله الموسيقى والرماية والتنبؤ والطب والتطهير ، فضلا عما بذله من جهود لتقدم الحضارة بإقرار المدونات القانونية وبث المبادىء الخلقية والدينية السامية . وفى الحق إنه لم يدع إلى طهارة الجسد والمظهر فقط ، بل دعا بالذات إلى طهارة النفس والجوهر ، ونقاء السريرة ، وصفاء النية ، لأن النيات هى مقياس الأعمال . وبذلك تكون ديانة أبوللون قد بلغت أرفع مستوى خلقى فى العالم الوثنى القديم . ولقد حفرت بعض هذه الحكم الأخلاقية على حدران معبده فى دلفى ، ومن بينها « إعرف نفسك

«mèden agan » و إياك والإفراط « gnôthi seauton » ، وتكشف هاتان الحكمتان عن صفة أخرى فى أپوللون . فقد اشتهر هذا الإله بمناوءة الطغاة (tyranni) ، فقاوم ، على سبيل المثال ، أسرة پيسستراتوس (Peisistratus) فى أثينا وأورثاحوراس (Orthagoras) فى سيكيون (Sicyon) . ولم يقف أبوللون هذا الموقف من الطغاة تمشيا مع سياسة أسبرطه فحسب ، بل لسبب أعمق من ذلك يتصل بجوهر ديانته . فعلى الرغم من أن اليونان كانوا يبغضون الطغاه ، إلا أنهم كانوا يعجبون بهم بوصفهم نظراء للآلهة، قد يستبيحون لأنفسهم ، كالأرباب إتيان أى شر يروق لهم . غير أن ذلك كان يتعارض وحكمة تجنب الإفراط ، وينطوى على معنى تجاوز الحد ، ويحمل معنى التجبر والغطرسة (hybris) ، وهى خطيئة كان يحذر منها الإغريق كل الحذر . فعلى الإنسان أن يعرف نفسه أو بالأحرى يعرف أنه بشر ، وبخاصة فى أوقات الهناء لأنه يكون أميل إلى نسيان أنه فان فى تلك الأوقات . وعندما يبلغ المرء ذروة الهناء، يصبح أقرب ما يكون إلى الشقاء . فالصواعق غالباً ما تصيب أعلى القمم. على الإنسان إذن أن يعلم أنه خاضع للآلهة ، وأن يروض نفسه على الرضوخ لما تقضى به النبوءات . ولا ينبغى له أن يرتفع ارتفاعاً شاهقاً ، أو أن يدنو من الأرباب دنوا شديدا مثلما فعل الطغاة . فقد هوى هؤلاء الطغاة وأبناؤهم من شاهق ، وأوردهم الزهو موارد التهلكة وعرضهم تجاوز الحد لانتقام السماء (Nemesis) .

- ولدينا عن أبوللون عدة أساطير نسجت حول مولده وأعدائه وعشيقاته.
ولقد روى أن الربة ليتو (Leto) هامت على وجهها وهى حامل فى أبوللون، فجابت بلاد اليونان ، دانيها وقاصيها ، وطافت بكل جبالها وجزرها من كريت حتى أورتيجيا (Ortygia) . ومن عجب أن الربة لم تجد مكاناً واحداً يقبل استضافتها أو يرحب بوليدها . فقد خشيت كلها أن يكون الإله الجديد إلهاً جباراً رهيباً ، أو لعلها خشيت نقمة هيرا عليها ، لأن زوجة زيوس الغيور لم تكن تحمل لغريمتها ليتو سوى المقت الشديد. وأخيراً لجأت الربة إلى ديلوس أصغر جزر بحر إيجه وأجدبها وأحقرها شأناً . وقد وعدت ليتو الجزيرة الضئيلة بالثروة الضخمة التى ستهبط عليها مع ألوف الحجاج الوافدين على معبد أبوللون من شتى الأصقاع . وابتهجت ديلوس التى احتفت بمقدم الربة حفاوة لا تخلو من الرهبة . فلقد سمعت أن أبوللون سيكون إلهاً رهيباً ، وسيداً مهيباً تخشع له قلوب الفانين والخالدين . وتوجست خيفة من أن يفتح الإله الوليد عينيه على صخرتها المقفرة فينظر إليها شذراً أو يشيح عنها ضجراً فيلكزها بعيداً أو يدوسها فتغوص فى أعماق البحر . وعندئذ لن يسكنها الناس ، بل تسكنها عجول البحر ، ويهجرها الإله غير آسف . لكن يقال إن ليتو أقسمت بنهر استيكس — وهو قسم عظيم — أن الإله سيبنى أول معبد له فى ديلوس . وبعدئذ استسلمت لآلام الوضع . وتعسرت ولادتها فظلت تتوجع سبعة أيام وسبع ليال وجعاً

فاق حد الاحتمال . وأقبلت عليها جميع الإلهات ما عدا هيرا التى بلغ من حقدها أنها احتجزت بجانبها إيليثيا ، القابلة الإلهية ، وأخفتها وراء ستار من السحب على جبل أليمبوس حتى لا ترى شيئاً مما يجرى فى ديلوس فتتحرك نخوتها . وعندئذ أوفدت الإلهات من الجزيره الرسولة إيريس (Iris) لاستدعاء أيليثيا ، واعدات أن يكافئن الربة على خدماتها بعقد طويل ثمين . ولم تتردد أيليثيا فى قبول العرض وجاءت هى وإيريس طائرتين إلى ديلوس ، فى شكل يمامتين . وما أن وطئت أيليثيا أرض الجزيرة حتى وضعت ليتو وليدها . وعند ما جاءها المخاض أمسكت بيديها شجرة من أشجار النخيل التى تنمو بالجزيرة ، وعجنت بقدميها طين أرضها الرخوة. وقد تضاحك الثرى من تحتها ووثب الإله من رحمها وتصايحت الإلهات . وتلقفن الوليد مبتهجات وغسلنه بماء أقاح ولفوه بقماط ناصع البياض . ولم ترضعه أمه بل أرضعته ثيمس بالنكتار والأمبروسيا . فما أن ذاق الطفل طعم الغذاء الإلهى حتى دبت فيه القوة فتماص من قماطه . وقال أبوللون للإلهات « إن القيثارة والقوس أثيران إلى نفسى ، ولسوف أعلن للناس فى نبوءاتى مشيئه زيوس التى لا محيص عنها ،ولاراد لها . وشُدهت الربات ، وتألقت ديلوس تألق الذهب الإبريز ، وأينعت الجزيرة إيما إيناع وانبعث من جنباتها أريج شذى ، وطاف حولها البجع سبع مرات مترنماً بأعذب الأنغام . وقد تحولت أحجار ديلوس إلى ذهب براق ،

وتحولت أوراق الزيتون إلى المعدن ذاته ، لأن هذه الشجرة كانت تنمو بالجزيرة كالنخيل سواء بسواء ، حتى أن البعض يقول إن ليتو استندت إلى جذعها عندما جاءها المخاض. وفاض نهر أنوبوس بالذهب الخالص . ويروى أيضاً أن ديكاً حضر ميلاد الإله ، وهو طائر قيل عنه إنه يرقص فى طرب ونشوة ساعة ظهور القمر ، ولو أنه عادة مايصحو ويصيح مع شروق الشمس. ولقد صار الديك منذ ذلك الحين طائر ليتو المختار .

ووصلتنا أيضا قصص عن أعداء قهرهم أبوللون بعد ولادته مباشرة . فقد تعرضت أمه ليتو أثناء طوافها بالبلاد لأخطار من جانب أعداء كثيرين. ولا ندرى تماما أحدث هذا بعد ميلاد أرتميس وأبوللون ، أم قبل ميلاد التوأمين . وكان أحد هؤلاء الأعداء عملاقاً يدعى تتيوس (Tityos) أنجبه زيوس من عشيقته إيلارا (Elara) . ولقد روى عن هذا العملاق أنه بينما كان لا يزال فى بطن أمه ؛ نضخم حجمه تضخما أدى إلى وفاتها ، ولذلك ولدته « الأرض » التى كان أبوه قد أخفاه فى جوفها . وهاجم تتيوس الربة ليتو وهى تشق طريقها إلى دلفى واختطفها عنوة . وفى رواية أن أرتميس صرعت هذا العملاق بنبالها ، وفى أخرى أن الطفل أبوللون هو الذى صرعه ، وفى ثالثة أن زيوس أهلكه بصاعقته .وقد سقط العملاق فى العالم السفلى صريعاً وظل جسمه الضخم ممداً على الأرض حيث أخذ رخان أو ثعبانان ينهشان كبده الذى كان ينمو من جديد كلما ظهر القمر .

ويحكى أيضا أن بيثون (Python) ، وهو التنين الذى يظهر فى معظم الروايات كعدو لدود لأبوللون ، كان قد طارد ليتو هو الآخر محاولا أن يمنعها من ولادة التوأمين . ولهذا انتقم منه الإله وقتله شر قتلة إما بعد أن رأت عيناه النور مباشرة أو بعد أربعة أيام من ولادته . ذلك أن دلفى كانت أول مكان زاره أبوللون ، حيث كان يسكن ذلك التنين فى عرين بكهف قريب من أحد الينابيع ، ولعله كان متكورا حول شجرة من أشجار الغار . على أن القصص القديمة لا تتحدث عن تنين واحد بل عن تنينين ، وأن الإله لم يصرع إلا واحداً منهما . لقد كان العدو الحقيقى لأبوللون تنينة أو أفعى هائلة (drakaina) تدعى دلفينى (Delphyne) وهو إسم كدلفى نفسها ، مشتق من كلمة قديمة بمعنى الرحم . وكان يعيش مع دلفينى هذه ثعبان هائل يدعى تيفون (Typhon) ، وهو الذى قيل إن هيرا أنجبته وحدها إنتقاما من زوجها الذى أنجب أثينه من رأسه . ولم يصلنا أن أبوللون قتل الثعبان تيفون بن هيرا . ويبدو أن الرواة خلطوا بين بيثون ، تنين دلفى ، وتيفون أو تيفاون ، خصم زيوس الرهيب ، الذى سبقت الإشارة إليه[1] . وعلى أى حال فإن القصتين مرتبطتان أشد الارتباط . وقد عرفت الأفعى الهائلة دلفينى ، عدوة أبوللون ، بإسم مذكر ، وهو

---

(١) أنظر أعلاه ص ٥٤ .

دلفينيس (Delphynes) ، بل إنها عرفت كذلك بإسم بيثون . وقد أصبح هذا التنين فى الحقيقة ثعبان أبوللون ، وسميت بإسمه الكاهنة بيثيا (Pythia) التى كانت تنطق فى دلفى بالنبوءات التى يوحى بها الإله . وفى بعض الرسوم القديمة يظهر الثعبان بيثون وهو يعيش فى وئام مع أبوللون ويحرس الأومفالوس ، الصخرة المقدسة، أو السّرة التى تقوم فى المعبد والتى حسبها اليونان مركز العالم . على أن الرواه الذين خلطوا بين دلفينى و بيثون ختموا قصتهم عن مصرع التنين بأن جسمه تحلل بفعل قوة الشمس المقدسة وأن ، بعد تعفنه(puthein) ،عرف المكان نفسه بإسم بيثو (Pytho)، ومن ذلك الحين اكتسب أبوللون لقب « البينى » . لكن ينبغى لإكمال القصة أن نروى كيف تحتم على أبوللون أن يكفر عن قتله دلفيبى عقب مولده . ويتناول هذا الدور من القصة رحلة الإله من دلفى إلى وادى تمپى (Tempe) بإقليم تساليا ، واسترقاقه على يد أدميتوس (Admetus) ، ملك مدينة فيراى (Pherae) ، الذى يعنى اسمه « من لا يمكن قهره » . وقد استغرقت المدة التى كفر فيها أبوللون عن ذنبه ثمانى سنوات لم يزر خلالها دلفى . وأخيراً عاد يحمل لقب فويبوس (Phoebus) أى الطاهر الذى لا دنس به ، ويزين جبهته بأكليل من الزهر ، وفى يده غصن من شجرة الغار المقدسة فى وادى تمپى . وقد عرفت هذه السنوات التى قضاها الإله هناك بجوار نهر أمفريسوس بالفترة الرعوية فى حياته . وفى أثناء قيام

الإله بخدمة أدميتوس أعانه على أن يشد أسداً وخنزيراً بريّاً إلى نير عربته . وبذلك أتاح لأدميتوس أن يظفر بيد ألكيستس (Alcestis) التى اشترط أبوها على الخطاب إنجاز تلك المهمة العسيرة . وعندما حان أجل أدميتوس ، استطاع أبوللون أن يرجىء ساعة موته بالاحتيال على ربات القدر وإسكارهن[١] ، بل استطاع أن يحصل منهن على وعد بأن يظل أدميتوس على قيد الحياة لو وجد شخصاً آخر يموت بدلا منه . ولم يجد أدميتوس من يقبل افتداءه سوى زوجته ألكيستس التى تطوعت ووافقت

---

(١) كانت ربات القدَر (Moirai) بنات زيوس . وقد أنجبهن إما من ربة الليل (Nyx) التى كان يقف أمامها خاشعاً ، أو من الربة ثيمس . ويقال إنهن كن يعشن فى كهف بالسماء على مقربة من بركة يتدفق ماؤها الأبيض من هذا الكهف نفسه ، وكأنها صورة واضحة من ضوء القمر . وتعنى كلمة moira النصيب أو القِسْم . ولعل عددهن يقابل أقسام أو أوجه القمر الثلاثة والربات الثلاث هن : كلوثو (Clotho) أى الغازلة أو الناسجة التى تنسج خيط الحياة ، الذى ينتهى ساعة الموت الذى لا مفر منه ؛ ولاخيسس (Lachesis) مقسمة النصيب؛ وأتروبوس (Atropos)، أى التى لا محيص عنها ، وهى أضألهن جسما وأشدهن صلابة . وكانت هذه الربات هى التى تقرر وحدها — لكل إنسان طول خيط عمره ، فلم يكن زيوس نفسه ، يستطيع أن ينقض قرارهن . وأقصى ما كان فى وسعه هو أن يزن بميزانه الذهبى بين خصمين متقاتلين ويقرر أيهما يتحتم عليه أن يموت قبل الآخر . على أن عدد ربات القدر لم يكن دائما ثلاثة . فهو ميروس يتحدث عن ربة واحدة للقدر (Moira) ، ويصفها بأنها قوية مدمرة . وكانت تعبد فى دلفى ربتان للقدر إحداهما للميلاد والأخرى للموت . وفى رسم قديم على أحد الأوانى الخزفية يصور زواج بليوس وثيتس ربة البحر ، ظهر أربع ربات للقدر .

الموت عوضاً عن زوجها ، واهبة بقية حياتها لتكون إمتدادا لعمره ، وضاربة المثل الأعلى فى التضحية والفداء . غير أن هيرا كليس ، البطل الإله ، استطاع أن يعترض طريق الموت (Thanatos) فى العالم السفلى وينتزع ألكيستس من براثنه ويعيدها إلى الحياة الأولى .

وفى رواية متأخرة لقصة استرقاق أبوللون أن الحب ربط بينه وبين قلب أدميتوس برباط وثيق . وفى الحق أن قصصاً كثيرة رويت عن علاقات أبوللون الغرامية ، وإن كان معظمها وأوسعها شهرة ينتهى بنهاية مفجعة ، سواء أكان المحبوب فتى أو فتاة . وكان هياكنثوس Hyacinthus غلاما إلهياً شبيهاً بأدونيس ، أنجبته كليو إحدى ربات الفنون التسع (Musae)[1] ،

(١) كن ربات أو ملهمات الفنون كالشعر والرقص والموسيقى والغناء ، وبعدئذ الفلسفة والفلك وكل الهوايات الفكرية . وقد أنجبهن زيوس من منيموسينى (Mnemosyne) أى « الذكرى » . ويحدثنا هسيودوس بأن زيوس جامعها تسع ليال فى مكان استراحته المقدس بعيداً عن أعين الآلهة . وبعد عام أنجبت منيموسينى منه تسع بنات ، كلهن شغوفات بالغناء ، عند مكان قريب من قمة أوليمبوس المكسوة بالثلوج ، حيث كان لهن قصر خاص وساحة للرقص . وكانت تعيش معهن ربات البهاء (Charites) أى السحر والرشاقة والجمال ، وهيميروس (Himeros) ، صنو إيروس (وهو كوبيد عند الرومان) ، إله الحب الصغير . وكثيراً ما كانت ربات الفنون تنتقل إلى جبل أوليمبوس فى موكب وهن ينشدن بصوتهن الساحر ، أناشيد ترجع الأرض صداها ، ويهتز الفضاء طرباً من رشاقة خطواتهن ، وتحيط غلالات من السحب بأجسادهن الرقيقة . وكان لهن ساحة أخرى للرقص فوق قمة جبل هليكون (Helicon) فى إقليم بويوتيا (Boiotia) على مقربة من ينبوع يعرف بينبوع الحصان (Hippo.krene) لأن بجاسوس ، جواد بوسيدون ، ضرب الجبل بحوافره فتفجرت منه المياه . وفى =

من أبيها نفسه مثلما أنجبت ميرها أدونيس من أبيها الذى هامت به .
وفى الحق إن كليو لم تفعل ذلك إلا لأن أفروديتى انتقمت منها عند ما
لامتها كليو فى هيامها بأدونيس . ويظهر هيا كنثوس فى الأساطير كفتى
رقيق تتنافس ربات الفنون فى حبه ، ويرسم أحياناً راكباً بجعة . وتروى

= رواية أخرى أن رجلا من مقدونيا يدعى بيروس (Pieros) هو الذى أدخل عبادتهن
فى هذه المنطقة ، ولذلك عرفت ربات الفنون أحياناً باسم بيريديس (Pierides) ،
كما عرفت باسم منيَّاى (Mneiai) ، أى الذكريات ، نسبة إلى أمهن . وأما عن
اسمائهن فإن كليو Clio (أى مانحة الشهرة) ، قد أصبحت ربة التاريخ ؛ ويوتربى
Euterpe (أى مانحة البهجة) ، ربة العزف على الناى ؛ وثاليا Thalia (أى مسرة
الحفلات والأعياد) ربة الكوميديا ؛ وملبومينى Melpomene (أى المغنية) ربة
التراجيديا ؛ وترپسيخورى Terpsichore (أى هاوية الرقص) ، ربة القيثارة والشعر
الغنائى ؛ وإراتو Erato (أى مثيرة الرغبة) ، ربة الرقص ؛ وپولِهيمنيا Polyhymnia
(أى كثيرة الإنشاد) ، ربة القصص والتمثيل ؛ وأورانيا Urania (السماوية) ، ربة
الفلك ؛ وكاليوپى Calliope (أى ذات الصوت الجميل) ، ربة شعر الملاحم ، وهى
أعظمهن قدراً . وكما أنجبت جايا وأورانوس ابنتهما منيموسينى ، وهى الذكرى ،
فقد وهبتنا بناتها ، ربات الفنون التسع ، النسيان : نسيان الهموم والأحزان (Lethe) .
وفى الحق أن ليثى كان نهراً من أنهار العالم السفلى أو منطقة هناك تعرف باسم « حقول
ليثى » . لكن هذا العالم كان به أيضاً ينبوع باسم منيموسينى أى ينبوع الذكرى .
وكان يوجد بإقليم بويوتيا ينبوعان أحدهما يعرف بينبوع منيموسينى والآخر ينبوع
ليثى . وقد عبدت منيموسينى هناك بوصفها ربة خالدة . وكان لبناتها أيضاً أماكن
مقدسة وينابيع . وفى الحق إن ربات الفنون اللاتى كن يتمثلن فى شكل طيور ، قد
ارتبطن كأمهن بالينابيع ارتباطاً وثيقاً .

القصة أن أبوللون عشق هذا الصبى الوسيم ولعب معه لعبة رمى القرص . وفى أحد الأيام أصاب الإله حبيبه عفوا إصابة قاتلة فنبتت من دمه زهرة الياسنت ، وهى زهرة برية ذات أكمام قاتمة الزرقة . على أن هياكنثوس كان كأدونيس إلهاً ، وقد عبد بعد إختفائه كبطل من الأبطال الراحلين. وقد زعم بعض الناس أن برعم زهرة الهياكنثوس أو الياسنت كان يستعمل لتأخير سن البلوغ عند الصبية .

كما أحب أبوللون فتى يدعى كيباريسوس(Cyparissus) .وفى الحق إن كل الصبية الذين افتتن بهم هذا الإله كانوا على مثاله . فقد صرع كيباريسوس حيوانا أثيراً لديه دون قصد مثلما صرع أبوللون عشيقه هياكنثوس . وكان هذا الحيوان أيلا جميلا من تلك الأيائل المقربة إلى قلب أبوللون وأرتميس . ويروى أن هذا الأيل كان له قرون ذهبية ضخمة وعلى جبهته حلى فضية . وقد روضه كيباريسوس حتى صار أليفاً وديعاً . وبلغ من تدليله له أنه كان يزينه بأكاليل الزهر ويركبه دائما فى نزهاته . وفى يوم قائظ الحر بينما كان الأيل يستظل تحت شجرة من هجير الشمس ، أخطأه صاحبه وظنه أيلا عاديا ، فصوّب إليه سهماً أرداه قتيلا . واجتاح كيباريسوس حزن عميق عندما رأى أنه صرع صفيّه بيديه . وتمنى إما أن يموت أو أن يحزن عليه طوال حياته . ولم يكن هناك من دواء يأسو به

أبوللون جراح الفتى الحزين إلا أن يمسخه شجرة حزينة ، وهى السرو (cypress) ، تلك الشجرة الدائمة الخضرة التى تتقمصها روح كيباريسوس اليوم وسوف تتقمصها إلى الأبد .

على أن دافنى (Daphne) هى أول من مس حبها شغاف قلب أبوللون . لقد كانت دافنى — ومعنى اسمها الغار — إبنة رب النهر لادون (Ladon) ، أو ابنة بنيوس (Peneus) ، الإله النهر ، سيد وادى تمپى . وكانت فتاة فطرية كالطبيعة ، عذراء كأرتميس التى لقبت هى الأخرى بدافنيّا (Daphnaia) أو دافنيا (Daphnia)، لأن شجرة الغار كانت شجرتها المفضلة . ولم يكن أبوللون وحده هو الذى أحب دافنى ، فقد أحبها أيضاً شاب يدعى ليوكيوس (Leucippus) ، أى ذو الجواد الأبيض . وقد تنكر ليوكپوس فى شكل فتاة حتى يستطيع مرافقة دافنى . وبينما كانت دافنى تستحم فى أحد الأنهار ، اكتشفت صويحباتها حيلة ليوكپوس ومن ثمّ قضى العاشق نحبه أو اختفى إلى الأبد . وقد تعقب أبوللون دافنى فتوسلت إلى الأرض الأم أن تنقذها منه فسختها شجرة غار . فلا عجب أن أصبحت هذه الشجرة عزيزة على نفس أپوللون حتى أنه كان يزيّن جبينه دائما بغصن منها .

وكان أپوللون عندما يقابل بالصد والإعراض من عشيقاته ولا يستطيع

التمكن منهن ، يتمثل لهن فى صور شتى . فقد تمثل مرة فى صورة سلحفاة ومرة أخرى فى صورة أفعى . وأطرف هذه القصص ما تمثل فيها فى شكل ذئب لكى يجامع كيرينى (Cyrene) ، وهى إحدى الحوريات . وكانت كيرينى صائدة عذراء ، أشبه ما تكون بأرتميس التى قيل إنها أهدتها كلبين من كلاب الصيد . وكانت كيرينى تعيش فى غابات جبل بليون (Pelion) ، وتحمى بحربتها وسيفها أغنام أبيها من الوحوش المفترسة . وحدث ذات مرة أن رأى أبوللون الفتاة تصارع أسدا وهى عزلاء من السلاح . وتملكته الدهشة فاستدعى خيرون (Chiron) الحكيم ، وهو كنتاوروس (Centaurus) ، نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان ، استدعاه من كهفه القريب ليفتيه فى أمر هذه الفتاة الغريبة . ونصحه خيرون بأن يتزوج منها سرا . وحمل أبوللون الفتاة العذراء فى عربته التى يجرها البجع ، حملها إلى شمال إفريقيا حيث أسست فيما بعد مدينة كيرينى (Cyrene) وهى برقة . وفى أرض ليبيا تم الزواج . وتنبأ خيرون بأن كيرينى ستضع طفلا إلهيا ، وأن هرميس سيتولى رعايته ويحضره إلى الهوراى ، ربات الفصول ، وإلى الربة جايا . ولسوف تدهش الالهات عندما يضع هرميس الطفل فى حجورهن ، ويسقينه نكتارا وأمبروسيا ، وبذلك يكتبن له الخلود . وسيجعلن منه زيوس آخر ، وأبوللون مصغرا مقدسا ،

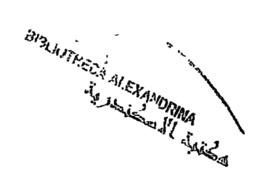
مطهراً ، وقرة عين البشر أجمعين . ولسوف يـكون أخلص حارس للغنم ، وصيادا ماهراً ، وراعيا أمينا مثلما كان أبوللون ، وخير كائن فى الوجود (Aristaios) . ولقد روى عن أبوللون هـذا ، فى صورته الثانية ، أن أباه حمله إلى كهف خيرون ، الذى أشرنا إليه منـذ لحظة ، لـكى يقوم زملاؤه الوحوش بتربيته . وعنـدما نما وترعرع وأصبح رجلا ، أعدت ربات الفنون حفل زواجه ، وعلمنه الطب والعرافة وأقمنه حارساً على قطعانهم فى سهول تساليا . وقد امتثل لأمر أبيه أبوللون فهجر تساليا واستقر بجزيرة كيوس (Ceos) حيث دأب على تقديم القرابين لزيوس ولسيريوس (Sirius) ، نجم الشعرى اليمانية ، الذى كان هجير الشمس يشتد بظهوره فتهب رياح لافحة على جزر بحر إيجه ولا يجد الناس خلاصا منها إلا بالصلاة لهذا الإله . وفى الحق أن الرياح التجارية (الدوْرية) ، وهى رياح الـ Etesiai التى تهب على البحر الإيجى أربعين يوما فى السنة أثناء الصيف ، إنما تهب تمجيدا له . ولقد ابتدع خلية النحل وتربيته وابتـكر معصرة الزيت وصناعة الجبن . ويقال إنه كان أول من نصب الشراك للذئاب والدببة وخلّص جزيرة سردينيا من الطيور الجارحة .

وما دمنا بصدد غراميات أبوللون ، فلا ينبغى أن نغفل قصة ميلاد ابنه اسكليبيوس (Aselepius) ، الطبيب الإلهى ، وإله الطب المداوى .

لقد كان أبوللون نفسه طبيبا ولم يكن فنه يتخلى عنه إلا فى حالة من يصرعهم بيديه . وأما أسكليبيوس الذى كان يشفى البشر بل يحيى الموتى أحيانا ، فكان مثل أريستايوس ، أبوللون آخر أو مصغراً ، ولا يعتبر فقط ابنا لأبوللون بل كان يدعى أحيانا بزيوس ، على الرغم من الأسطورة التى تقول إن زيوس هو الذى صرعه . وخلاصة القصة أن فتاة تدعى كورونيس (Coronis) ، أى الفتاة الغراب — وهى ابنة فليجياس (Phlegyas) ، أحد أعداء أبوللون — كانت تغسل قدميها ذات مرة فى بحيرة بويبيس (Boibeis) بشمال بلاد اليونان . والتقى بها أبوللون وأنجب منها غلاما . غير أن كورونيس تزوجت شخصاً آخر يدعى إسخيس (Ischys) أى القوى . وقد حمل نبأ هذا الزواج أبوللون طائر محبب إليه وهو الغراب الذى كان أبيض اللون فبدله الإله فى سورة غضبه باللون الأسود . على أن رواية أخرى تقول إن الفتاة كورونيس اتصلت بالإله وحملت منه . وبعدئذ جاء من أركاديا ضيف يدعى إسخيس بن إيلاتوس . ولم تستطع كورونيس مقاومة إغراء الزائر الجديد فاستسلمت له فى الخفاء دون علم أبيها . غير أن خيانتها لم تخف على أبوللون الذى أرسل أخته إلى حيث كانت كورونيس تسكن على بحيرة بويبيس ، فرمتها أرتميس بسهام أردتها قتيلة هى وكثيرات من بنات جلدتها . وانتشر بالمكان وباء مهلك وتكدست الجثث المحترقة فى

أ كوام . و بيها كانت النار مشتعلة حول جثة كورونيس ، أشفق أبوللون على مصير ابنه ولم يحتمل أن يراه يهلك مع أمه ، فبادر بانتزاع اسكليبيوس من جثتها ، وسلمه لخيرون الحكيم الذى لقنه فن الطب . وقد راجت قصص أخرى فى بلدة إپيداوروس (Epidaurus) حيث كان المرضى يلتمسون الشفاء بالنوم فى معبد الإله (incubatio) . ولا تذكر هذه القصص شيئا عن خيانة كورونيس أو مصرعها ، وإنما تذكر أن أم اسكليبيوس كان لها اسم آخر وهو أيجلى (Aigle) ، أى المضيئة ، وأن جده هو فليجياس وأن جدته هى إيراتو ، إحدى ربات الفنون وتضيف هذه القصة أن أرتميس وربات القدر حضرن ولادته التى تمت فى المعبد . وقيل أيضاً أن فليجياس ، وهو رجل حرب ، جاء الپلوپونيز بقصد التجسس توطئة لغزوها . وقد جاءت معه كورونيس التى كانت حاملاً من أبوللون دون علم أبيها . فلما ولدت أسكليبيوس فى بلدة إپيداوروس ، ألقت به عند أحد الجبال . وأرضعت الطفل عنز وحرسه كلب . ولما أحس الراعى غياب هذين الحيوانين عن قطيعه بحث عنهما فوجد الطفل ورأى أن ينقله إلى بيته . وما أن اقترب منه حتى بهرت عينيه هالة من النور . وأدرك من فوره أن الرضيع ليس كالبشر ، بل مخلوق إلهى ، فارتد على عقبيه . وذاع فى الحى أن الطفل سوف يداوى المرضى عند ما يكبر ، بل سوف يعيد الموتى إلى الحياة . وقد أصبح الكلب حيواناً أثيراً إلى نفس أسكليبيوس

مثلما كان ثعبان أبوللون أثيراً إلى نفسه . ولعل ذلك يفسر اقتران صورته بالعصا التى يلتف حولها ثعبان . ولم يصلنا أن أسكليبيوس المنقذ (Sotêr) أحيا الموتى فى أبيداوروس نفسها ، وإنما لدينا قصص كثيرة عن بعثه بعض الموتى من الأبطال مثل هيبوليتوس (Hippolytus) ، صفىّ أرتميس الربة العذراء ، ويقال إن إحياء الموتى أثار غضب زيوس فصرع الإله الطبيب بصاعقته . وانتقم أپوللون لابنه بأن قتل بعض الكيكلوپيس . ويرى البعض أن هذا هو السبب الحقيقى الذى من أجله تحتم على أپوللون أن يكفر عن ذنبه بالاشتغال كخادم لدى الملك أدميتوس بضع سنوات .



هرميس

(مركوريوس Mercurius)

كان هرميس أبنا لزيوس رب الأرباب ، وقد أنجبه من حورية جميلة تدعى مايا (Maia) فى اليوم الرابع من الشهر . وكان إلها رشيق الحركة ، سريع الخطا ، تعينه على الطيران أجنحةفى نعليه،وفوق قبعتهالعريضة وحول عصاه السحرية (caduceus)[1] . ولذلك اشتهر هرميس بأنه رسول الآلهة ورسول زيوس بالذات الذى كان يكل إليه بالمهمه فينجزها على أسرع وجه ، إن لم يكن فى لمح البصر . وكان هرميس أكثر الآلهة فطنة ودهاء ومكراً . وليس ثمة تجنى إن وصفناه بالرياء والخداع والخبث ، ولئن شئت الحق ، فقد وصف بأنه «اللص الأول» الذىمارس السرقة قبل أن يناهز اليوم الأول من عمره : فقد ولد مع الفجر ، ولكنه استطاع أن يسرق بقر أبو للون قبل أن يرخى الليل سدوله . وسنعود إلى هذه القصة بعد لحظة . ولما كان اسمه ، فيما يرجح ، مشتقا من كلمة بمعنى كوم الحجارة الذى تتقمصه روح سحرية (herma) أو الحجرة الملقاة على جانبالطريق بقصد السحر ،فإن تماثيله الدينية كانت تنحت من قديم الزمن على شكل

---

(١) فى اليونانية : Kerykeion

عضو إخصاب منحوت من الحجر أو على شكل عمود من الحجر مستطيل الشكل يعلوه رأس إنسان و يتوسطه عضو الإخصاب . وفى الحق أن الأخير كان رمزاً لهذا الإله الذى كان معنيا بالإخصاب ، مما يفسر اقترانه أحيانا بر بات لهن دخل بهذا الأمر ، مثل أفروديتى . وكان على هرميس بوصفه رسولا للآلهة أن يبلغ رسالته فى وضوح أو أن يدافع أحيانا عن وجهة نظر من أرسلوه. ومن ثم نشأ إرتباطه بالخطابة . ولما كان هو الذى ابتدع القيثارة فلم يكن من العسير أن يصبح بمرور الزمن راعيا للآداب . ولا يتضح انا السبب الذى من أجله اعتبر هرميس فى العصر الكلاسيكى (الذهبى) راعيا للشباب وتدر يباتهم الرياضية ،أو لماذا كان هو نفسه يُصَوّر فى شكل شاب. وليس ثمة من تفسير لذلك سوى أن نفترض أن الإخصاب يقترن بالحظ وأن الحظ السعيد أمر لازم للمتبار ين فى الألعاب ؛ وأن الأخيرة هى ميدان الشباب الذين كانت تدر يباتهم الر ياضية عنصراً جوهر ياً من عناصر التر بية فى كل الدو يلات اليونانية . وثمة وظيفة أخرى كان يمارسها هرميس بوصفه رسولا . فقد كان مرشد الأرواح (Psychopompos) فى طريقها إلى مقرها الأخير فى عالم الموتى . وهنا تبرز أهمية عصاه السحرية التى هى أداة لا غناء عنها للساحر الذى يخاطب الأموات ، و إن كان بعض الباحثين يفرقون بين هذه العصا الذهبية ذات الأوراق الثلاث التى تمنح الثراء ، و بين عصاه كرسول للآلهة ، والتى يلتف حولها ثعبانان . وكان هرميس فوق ذلك كله

إله التجارة والتجار والأسواق والحدود وراعيا لعابرى السبيل ومرتادى الطرق ومن بينهم اللصوص .

ولقد اكتسب هرميس لقب أمير اللصوص عن جدارة . فلم يكد يخرج من بطن أمه ، حتى بدأ يمل مهده المقدس ، فقام من فوره وأخذ يروح و يغدو أمام مدخل الكهف الذى ولد فيه ، باحثاً عن قطيع من البقر كان يمالكه أخوه أبوللون . وقد التقى عند خروجه من الكهف بسلحفاة تجر قدميها فى بطىء شديد ، فرحب بها قائلا « كم أنا سعيد برؤيتك أيتها الراقصة الجميلة ! لقد أتيت فى الوقت المناسب . لكن هل لك أن تخبرينى من أين لك هذه الدمية اللطيفة ، تلك الصدفة البراقة التى تقى ظهرك ، وأنت من سكان الجبال ؟ لسوف آخذك إلى بيتى لانتفع بك » . وحمل هرميس السلحفاة إلى داخل الكهف وقطعها بيديه وصنع من صدفها قيثارة . وقد فعل ذلك بأن ربط الصدفة إلى بوصتين وشدها كلها بأوتار جلدية من أحشاء الغنم . وشرع يعزف عليها عزفا جميلا بلغ مسامع الآلهة . وقد تغنى بزيوس وأمه مايا ، منشدا قصة غرامهما ، ومشيدا بمولده . غير أن هرميس سرح بفكره إلى شيء آخر . فقد هفت نفسه إلى اللحم . ولذلك ألقى بالقيثارة فى المهد وغادر الكهف وأخذ يجول خفية باحثاً عن فريسة مثلما يفعل اللصوص تحت جنح الظلام . وكان هليوس يهبط من السماء بعربته ذات الجياد

فآذنت الشمس بالمغيب عندما وصل هرميس إلى پيريا (Pieria) على مقربة من الجبل الظليل حيث كانت ترعى أيضا قطعان الأرباب وسط الأعشاب النضرة أو تقبع فى حظائرها الفسيحة . وسرق هرميس خمسين بقرة من القطيع وساقها معكوسة الوضع ، بحيث كانت حوافرها الأمامية إلى الخلف وحوافرها الخلفية إلى الأمام . ودفع هرميس بغنيمته إلى أرض رمليه . وقد ابتكر لنفسه نعلين كبيرين ليس فى وسع غيره أن يبتكر مثلهما ، فقد صنعهما من أغصان الأثل (أو العبل) والآس (أو المرسين) ، وربطهما فى أسفل قدميه . وغادر المكان على عجل لأنه كان لا يزال أمامه طريق طويل . . وشاء سوء حظه أن يراه رجل عجوز كان يفلح بستان كرومه فى بويوتيا بالقرب من أونخيستوس ، بعد أن قطع النصف من رحلته . وقال هرميس « أيها العجوز ، لسوف يأتيك محصول وفير من العنب . لكن عليك أن تلزم الصمت ، وكأنك لم تر ما رأيت ولم تسمع ماسمعت ! وإنى لأنذرك بسوء العاقبة إن نبست ببنت شفه ! » .

وحث هرميس الماشية على السير فوق الجبال والوديان والمروج الزاهرة، وانقضى الليل ، حليف اللصوص ، ولاحت تباشير الفجر . وجد الإله فى فى السير طوال النهار . وعندما ظهرت سيلينى ، ابنة بلاّس ، ربة القمر فى كبد السماء كان هرميس قد بلغ ضفاف نهر ألفيوس (Alpheus) ، أكبر أنهار البلوپونيز ، ودفع هرميس بماشية أپوللون المسروقة إلى فناء

الكهف حيث أخذت تأكل من الأعشاب الهشة الناعمة . وجمع الإله خشبا من أشجار الغار وأضرم ناراً هائلة في حفرة فبدت كأنها أتون يتصاعد منه لهب مستعر . وأحضر بقرنين وطرحهما أرضاً ثم كسر عظمهما وقطع اللحم والشحم وشواه جميعاً على أسياخ خشبية . وأما الجلد فوضعه على صخرة ليجف فى الشمس . ثم قطع اللحم اثنى عشر قطعة لآلهة أوليمبوس الأثنى عشر ، محتفظا بقطعة لنفسه . وإذا كانت نفس أحد الآلهة قد هفت إلى لحم القرابين ، وسال لعابه عندما شم رائحتها الشهية ، فقد قاوم شهوته ولم يضع أى قطعة من اللحم فى فمه لأن الآلهة التى تقدم لهم القرابين لا يأكلون فى الواقع من لحم الأضاحى . وكدس هرميس اللحم فى فناء الكهف كنصب تذكارى لأول سرقة من سرقاته .

ولما فرغ الإله من عمله ألقى بنعليه فى النهر وأطفأ النار وذرا الرماد الأسود فى الهواء . ومضت ليلة ثم مضت أخرى وهرميس ما يزال متغيبا عن بيته . وأخيرا عاد مع الصباح المبكر إلى جبل كيللينى (Cyllene). ولم يقابله أحد فى رحلته الطويله ، لا إله ولا بشر، ولم ينبح فى وجهه كلب. وتسلل هرميس السريع إلى الكهف من ثقب الباب كما يتسلل منها نسمة من نسائم الخريف . ودلف فى خفة دون أن يشعر به أحد ، واستلقى على مهده وجذب قماطه حول كتفيه ، وبدأ يلهو كالطفل الرضيع بالملاءة التى تحيط بردفيه . وتناوم واضعا قيثارته تحت ذراعه اليسرى . غير أن أمه ،

الربة مايا ، رأت كل شيء ، وقالت لابنها الإله « من أين جئت ، أيها الولد الماكر ، وأين كنت تمضى الليل ، أيها اللعين ؟ لشد ما أخشى من أن يجرك أپولون بن ليتو عبر هذا الباب بعد أن يقيد جسمك بالأغلال . أتريد أن تنفق حياتك ، كما يفعل اللصوص ، قابعا فى الشقوق ؟ فاتعد إلى حيث كنت ! وكأن أباك لم ينجبك إلا لتثير المتاعب فى وجه الآلهة والناس» .

وأجاب هرميس « لماذا ، يا أماه ، توجهين إلىّ هذا الكلام القارص كأنك تخاطبين طفلا لا يعرف عن الشر إلا القليل ، وترتعد فرائصه عندما تؤنبه أمه ؟ أما أنا فقد اخترت هذه الحرفة الماهرة التى ستكفل لى ولك أوفر الرزق . أتريدين أن نجلس بين الآلهة دون هدايا ودون صلوات ، كما هو شأنك ؟ إننى أعتزم أن أحظى بنفس التوقير ونفس التقديس الذى يحظى به أپولون . فإذا لم يعطنيه أبى ، فلن تعوزنى الجرأة لكى أصبح أميرا للصوص . ولئن طاردنى ابن ليتو لأنزلن به ضررا أفدح من سابقه . فلسوف أذهب إلى پيثو وأسرق منزله الذى يزخر بالمقاعد المثلثة القوائم والأحواض والذهب والحديد ومختلف الثياب . ولسوف ترين ، إن شئت ، ما سوف أفعله .

وعندما انبلج الصباح من أوقيانوس ، كان أپولون قد بلغ أونخيستوس ودخل غابة پوسيدون المقدسة . وهناك التقى بالرجل العجوز الذى كان يفلح

بستان الكروم على جانب الطريق . وبادره أبوللون بالسؤال عن بقراته ذوات القرون المغضنة ، لأن اللص لم يترك له سوى الثور والكلاب ، سارقا جميع البقر . وسأل أبوللون الرجل العجوز إن كان قد رأى أحداً يسوق ماشيته . فأجاب العجوز « يا صاحبى ، إنه لمن العسير أن يتذكر المرء كل ما تراه عيناه . فكثير من الناس يمرون بهذا الطريق ، وبعضهم طيب وبعضهم الآخر خبيث . فكيف يستطيع المرء أن يحكم عليهم جميعا . وفضلا عن ذلك فإنى كنت هنا فى بستانى طيلة النهار حتى مغيب الشمس. غيرأنه يبدو لى أننى رأيت غلاما صغيرا — وإن لم أكن متيقنا — رأيته يمر ومعه قطيع من البقر وكان ممسكا فى يده بعصا . وكان يسيرخلف القطيع متلفتا وراءه فى حذر . فلما سمع أبوللون هذا الكلام أسرع الخطا ، وما لبث أن رأى طائرا باسطا جناحيه فأدرك على الفور أن السارق هوأحد أبناء زيوس. وفى وثبة واحدة بلغ پيلوس (Pylos) مدثرا فى رداء من الضباب الأسود . ورأى أبو للون بعينيه أثر الأقدام فقال لنفسه « إنه لأمر غريب، فهذه أثر أقدام ماشية ، ولكنه يسير فى الاتجاه المضاد الذى ينتهى عند مرج الزنبق . غير أنه ليس أثرا لأقدام رجل أو امرأة أو ذئاب أو دببة أو أسود . ومن المستحيل أن تترك قدما الكنتاوروس نفسه مثل هذا الأثر الضخم ، إنه لأمر غريب يزيد من حيرتى » .

وهرع أبوللون إلى جبل كيللينى على مقربة من المخبأ الصخرى الذى ولدت فيه الحورية الخالدة مايا ابنها هرميس من الإله زيوس . واقتحم الكهف وهو يتلفت يمنة ويسرة . فلما رأى هرميس الشرر يتطاير من عين أبوللون أخفى نفسه فى قماطه مثلما تختفى جذوة من النار تحت الرماد ، وانكمش واضعاً رأسه بين ساقيه كى يلتمس الدفء بعد الاستحمام أو من يداعب الكرى عينيه . لكن هرميس كان يقظان متنبها وقيثارته تحت إبطه . وأجال أبوللون بصره فى جميع أركان الكهف ، وفتح بمفتاحه المعدنى ثلاث حجرات خفية كلها مليئة بالنكتار والأمبروسيا وتفيض بالذهب والفضة والثياب القرمزية والأرجوانية الزاهية كتلك الثياب التى تزخر بها منازل الآلهة المباركين . وبعد أن نقب أبوللون فى كل أركان الكهف ، التفت إلى هرميس قائلا « أيها الطفل هنالك ، أنت يا من تسترخى فى المهد ! قل لى بربك أين البقرات ؟ والخير لك أن تبادر بالرد وإلا فإننا لن نفترق فى سلام ، وألقيت بك فى ظلام ترتاروس الحالك الذى لا خلاص منه . وعندئذ أجاب هرميس فى خبث « أى كلمات نابية هذه التى تتفوه بها يا ابن ليتو ؟ وأى بقرات هذه التى تبحث عنها ؟ إنى لم أر شيئاً منها ولم أسمع عنها أبدا . وليس لدى أى معلومات أدلى بها إليك فأفوز بمكافأة المخبرين أو الوشاة . أو أبدو كرجل قوى يستطيع أن يسرق

البقر ؟ إن هذا ليس عملى ، بل هو أبعد ما يكون عنى . إن عملى هو النوم والرضاعة من ثدى أمى والاستلقاء بين لفائفى أو فى حمام دفىء . ألا فلتحذر إذن أن يعلم أحد سبب غضبك علىّ وتعنيفك إياى ! لسوف يذهل الناس عندما يقال لهم إن طفلا حديث الولادة ترك مهده وخرج ليبحث عن البقر ! لقد ولدت يا أپوللون ، بالأمس فقط ، وما تزال قدماى ناعمتين بينما الأرض خشنة. لكن إذا شئت ، فإنى أقسم لك برأس أبى أننى غير مذنب ، ولم أر أى شخص آخر يسرق بقراتك . فهذه أول مرة أسمع فيها عن هذه البقرات .

وابتسم أپوللون وقال « أى طفلى المدلل ، أنت ماكر مخادع تتكلم كما يتكلم لص عريق ! كم سيعانى منك الرعاة فى الجبال عندما تهفو نفسك إلى اللحم فتنقض على قطعانهم . لكن إذا أردت أن لا يكون نومك هو الأخير ، فلتهب من فراشك يا رفيق الليل الحالك ! ولسوف تشتهر أبداً بين الآلهة بأنك أمير اللصوص » . وأمسك به أپوللون وهمّ بحمله بين ذراعيه ولكن الطفل احتال عليه حتى أخلى سبيله ، ثم وثب وثبة قوية وأخذ يعدو أمامه ملوحاً بيديه ونادباً حظه ولاعناً كل البقر . ولم يكف عن الصياح مؤكداً براءته ومحذرا أپوللون من غضب زيوس .

وانتقل الأخوان إلى أولمپوس ليعرض كل منهما شكواه على أبيهما رب الأرباب . وقد عامل زيوس هرميس معاملة الغريب ، فسأل أبوللون

أين وجد ذلك الطفل اللطيف الذى يشبه الرُسل ؛ وسأله إن كان من اللائق أن يطرح مثل هذا النزاع على مجلس الآلهة . وعندئذ روى أبو للون لأبيه أعمال اللص الصغير وكيف سرق منه بقراته وضلله بلبس النعلين الضخمين فى قدميه وكيف ضبطه آخر الأمر فى أحلك ركن من الكهف المظلم حيث لا يستطيع النسر نفسه أن يراه . واستطرد يروى لكبير الآلهة سلسلة أكاذيب أخيه . وعندئذ مد هرميس أصبعه نحو زيوس وقال « أى زيوس الأب ، لسوف أقول لك الحق لأننى صادق ولا أستطيع أن أكذب . لقد أتى أبو للون إلى بيتنا فى فجر هذا الصباح يبحث عن بقراته ولم يحضر معه شهوداً رأوا ما حدث حتى يستطيعوا الإدلاء بأقوالهم أمام الآلهة . وقد حاول أن يرغمنى بالقوة على الاعتراف ، وهدد بإلقائى فى ترناروس لأنه فتى قوى فى أوج شبابه فى حين أننى وليد الأمس فقط ، كما يعلم هو نفسه . ولا مراء فى أن أبى سوف يصدّق كلامى ، فأنا أعلم سوء العاقبة إن لم أقل الصدق . وإنى لأخجل من الكذب فى حضرة هليوس ، إله الشمس ، وسائر الآلهة . ولقد أقسمت مرة من قبل برأس زيوس ، ولكن فى هذه المرة أقسم بين يدى زيوس عند مدخل قصر الآلهة الخالدين . وجدير بزيوس أن ينصر الصغار المستضعفين » . وعندئذ ضج زيوس بالضحك وناشد الأخوين التصافى والوئام ، وأمر هرميس أن يدل أخاه على المكان الذى أخفى فيه البقر . وعند ما تكلم زيوس أومأ

إليه برأسه نالك الإيماءة التى لا يستطيع أن يعصاها هرمبس نفسه أو غيره من الآلهة .

وأسرع الأخوان الخطا إلى بيلوس حيث أخرج هرمبس البقر من الحظيره التى أخفاها فى كهف بجوار نهر ألفيوس بأركاديا . ورأى أبوللون من بعيد جلود بقراته مطروحة على الصخرة الضخمة . وتعجب من قوة أخية الطفل الذى استطاع أن يطرح إثنين منهما أرضاً و ينحرهما بيديه . وقد أنجز هرميس عملا عجيباً آخر : فعند ما حاول أبوللون أن يوثقه والبقر بالعساليج ، جعل هرميس جذور العساليج تنغرس ثانية فى الأرض ثم تنمو فوق البقرات من جديد بحيث تعذر عليها الحراك . ولـكنه هدأ من ثائرة أخيه بلحن القيثارة الشجى فانشرح صدر أبوللون وضحك ضحكة عالية . فقد نفذ النغم العجيب إلى فؤاده ومس شغاف قلبه واستبد به الشوق إلى سماعه بكل جوارحه . ووقف هرميس يعزف بقيثارته (lyra) ويغنى بصوت رخيم مترنماً بالآلهة الخـــالدين ، وفى مقدمتهم منيموسينى (Mnemosyne) ، ربة الذكرى أو الذاكرة ، ولم يعد فى وسع أبوللون مقاومة رغبته فى اقتناء القيثارة . ولم ينـكر أن هذه الآلة الموسيقية تعدل بقراته الخمسين . وهنأ أخاه على ابتـكارها . وقد أعجبه فيها أن نغمها يبعث البهجة فى النفس ، ويثير الحب فى القلب ويغرى العين بالنوم . وقال

لأخيه هرميس إنه كان إلى اليوم رفيقا لربات الفنون ، ولكنه سيحرز منذ الآن الشهرة بين الآلهة . وأضاف بأنه مستعد لأن يعده بأى شىء فى مقابل القيثارة . واستجاب له أخوه فأعطاها له . وتلقى هرميس من أپوللون أول هدية وهى عصاه ثم مركزه كراع للماشية له مكانته . وبديهى أنه أقسم لأخيه أن لن يسرق منه القيتارة أو القوس . وعندئذ أعطاه أپوللون هدية أخرى وهى تلك العصا التى تمنح حاملها الثروة ، وهى غير عصا هرميس المشهورة التى كان يحملها بوصفه رسولا وبلتف حولها ثعبانان (Caduceus) ، وكان الشيء الوحيد الذى لم يستطع أپوللون أن يتنازل عنه لأخيه الصغير هى المقدرة على التنبؤ أو العرافة لأن أپوللون هو الذى كان وحده يعلم الغيب ويعرف مشيئة زيوس . ولكنه تنازل له عن سيطرته على الوحوش ، وبوأه منصب « مرشد الأرواح » على الطريق المؤدى إلى قصر هاديس .

وقد سبق أن ذكرنا كيف كانت تماثيل هرميس الدينية تصنع فى شكل عضو إخصاب منحوت من الحجر أو فى صورة عمود حجرى مستطيل له رأس إنسان وفى منتصفه عضو تذكير . هذا الشكل من تماثيله نشأ أول ما نشأ فى إقليم ثساليا حيث تقع بحيرة بويبيس التى سلفت الإشارة إليها عند الكلام عن مولد اسكليپيوس بن أپوللون . وقد

أصبحت شواطىء هذه البحيرة مسرحاً لقصة حب كان هرميس أحد طرفيها . ويختلف الرواة فيمن كان الطرف الآخر . فمن قائل إنها كانت پرسيفونى ، ربة عالم الموتى أو بريمو (Brimo) ، أى الربة القوية ، أو أرتميس نفسها ، ربة الصيد العذراء . غير أن الرواية الراجحة تقول إن هذه الربة التى اتصل بها هرميس كانت أفروديتى نفسها ، ربة الحب والجمال وكان هرميس وأفروديتى ، وفقاً لهذه القصة ، أخوين أنجبهما أورانوس ، رب سماء الليل ، من هيمرا (Hemera) ، ربة ضوء النهار . ولا بد من أنهما كانا توأمين لأن عيد ميلادهما واحد ، وهو اليوم الرابع من الشهر القمرى .. وقد أنجب هرميس وأفروديتى ابنا يدعى إيروس (Eros) ، أو لعله ابن يدعى باسم آخر . وعلى أى حال فإن أفروديتى عهدت بابنها هذا إلى حوريات جبل إيدا (Ida) بجزيرة كريت حيث نما وترعرع فى أحد الكهوف . وكان الإبن الجميل يحمل الكثير من سمات أبويه وملامحهما . فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره غادر موطنه الجبلى وطاف بجميع أنحاء آسيا الصغرى حيث أعجب بالأنهار والينابيع والعيون التى صادفها فى طريقه . وأخيراً بلغ إقليم أركاديا حيث نزل على مقربة من ينبوع الحورية سلماكيس (Salmacis). ولم تكن سلماكيس إحدى رفيقات أرتميس ، لأنها لم تهو الصيد أبداً ، بل كانت تمضى الوقت فى تصفيف شعرها والنظر فى الماء إعجاباً بصورة وجهها المنعكسة على صفحته .

وعندما رأت الغلام الجميل — الذى لا يستبعد أنه كان إيروس — تدلهت فى حبه ، ولـكنها لم تستطع إغواءه . لـكن إذا كان الفتى الوسيم قد قابلها بالصد والإعراض وقاوم إغراءها فإنه لم يستطع مقاومة إغراء المـاء ، ولم يلبث أن قذف بنفسه فى الينبوع . وعندئذ أقبلت عليه سلما كيس واحتضنته وحقق الآلهة رغبتها فيه ، واتحدت الحورية اتحاداً تاما بابن هرميس وأفروديتى ، وأصبحت ذلك الابن الذى عرف باسم هرمافروديتوس (Hermaphroditus) ، أى أصبحت غلاما أنثى ، وإن لم يفقد كل رجولته مثلما فقدها آتيس (Attis) . ومن المؤكد أن هذه الرواية ليست قديمة . لـكن ينبغى أن نتذكر أن أفروديتى نفسها عبدت فى أماثوس بجزيرة قبرص باسم أفروديتوس (Aphroditus) . وهكذا نجد أيضاً فى تلك الجزيرة هذا الاتحاد بين الذكر والأنثى فى كائن واحد ، وهو ماحققته الحورية سلما كيس ، ومانعبر عنه اليوم بكلمة (androgynos) ، أى الـكائن الذى يجمع بين خواص الجنسين .

هيفايستوس

(فولـكانوس Vulcanus)[1]

كان هيفايستوس (Hephaestus) فى الأصل إلها آسيوياً لنار البراكين ، و بعدئذ أصبح إله النار و بخاصة نار الحدادة ، وأخيراً إلهاً للحدادة ذاتها . و يوصف عند هوميروس بأنه ابن زيوس وهيرا ، وعند هسيودوس بأنه ابن هيرا التى أنجبته وحدها انتقاماً من زيوس الذى أنجب أثينه من رأسه . ولدينا عدة أساطير عن هذا الإله روينا أشهرها فى معرض الـكلام عن أفروديتى وأثينه وهيرا وآريس . على أن أهمها ما يدور حول ميلاده وقبحه وعاهته . ولعل القارىء لم ينس أن هيفايستوس ولد قبل أوانه أى قبل اكتمال مدة الحمل الطبيعية ، فجاء إلى الدنيا بعاهة العرج لافى قدم واحدة بل فى قدمين ، إذ كانت كل منهما معـكوسة ،أصابعها فى الخلف وعقبها فى الإمام حتى أن الإله لم يكن فى وسعه أن يمشى إلا إذا دفع بكل جسمه إلى الأمام . و يظهر هذا التشويه واضحا فى رسوم الأوانى الفخارية التي وصلتنا . ويعزو بعض الرواة ميلاده غير الطبيعى إلى أنه حدث فى الفترة التى كانت فيها علاقة زيوس بهيرا ما تزال سراً خافياً ،

---

(١) كما عرف أحياناً عند الرومان بإسم Mulciber .

وهى فترة امتدت ثلاث مائة سنة . و يحدثنا هوميروس على لسان هيفايستوس نفسه كيف أن الأخير لم يخف ألمه من أن هيرا حاولت إخفاء مولده المشوه . وفى الحق أن هيرا نفسها لم تكتم خجلها منه أو ضيقها به . فقد قذفت بالطفل من السماء . وكان من الجائز أن يهلك لولا أن تلقفته أيدى نيتس و يوريتومى (Eurynome) عندما سقط فى البحر . وقد بقى هيفايستوس مع هاتين الربتين تسع سنوات صنع لهما فى أثنائها أقراطاً وقلائد ومشابك وحليا أخرى. ولم يعلم أحد من الناس أو الآلهة شيئاً عن هذا الأمر سوى الربتين. و يروى هوميروس قصة أخرى عن سقوط هيفايستوس من السماء . فقد حاول هيفايستوس مرّة أن يحمى أمه من بطش أبيه فأمسك به زيوس من عقبه وقذفه من قصر الآلهة فهوى فى الفضاء ، واستغرق نزوله يوماً بأكمله . وأخيراً سقط فوق جزيرة لمنوس (Lemnos) مع غروب الشمس . ولما بلغ الأرض كان فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة . وليس من المستبعد أن يكون سقوطه على هذا النحو هو سبب عاهته . وعلى أى حال فقد عثر عليه وعنى به قوم يدعون بالسنتيين ، وهم قوم متبربرون قيل إنهم عبدوه فى الجزيرة . وقد حدث ذلك فى الوقت الذى قيد فيه زيوس زوجته هيرا بالأغلال وعلقها على حبل ذهبى بين السماء والأرض عقاباً لها على اضطهادها لهيراكليس .

ومع هذا كله فإن هيفايستوس يظهر فى أشعار هوميروس كإله محاط

بكل مظاهر الإجلال والتوقير . وبديهى أن عاهته كانت تجعله دائماً ثقيل الحركة وتمنعه من مزاولة مهنة كالزراعة أو القنص أو الزج بنفسه فى القتال، فكان من الأوفق له أن يزاول حرفة كالحدادة لا تستلزم التنقل ، مستغلا قوه ساعديه . و يتفق هذا مع الرواية القائلة بأن هيرا لم تلق بابنها من السماء بل أحضرته عقب ولادته مباشرة إلى جزيرة ناكسوس (Naxos) حيث عهدت به إلى رجل يدعى كيداليون (Cedalıon) لكى يقوم بتربيته وتعليمه حرفة الحداده . ولذلك كان هيفايستوس يصنع مختلف الأدوات والمعدات والمساكن والأثاث والأسلحة والدروع للأبطال والآلهة . وكان من أشهر ما صنعه درع أخيليوس وعقد هرمونيا وصولجان أجاممنون . وكان يعاونه فى دكانه فتيات صنعهن بيديه من الذهب، وأحياناً أخرى الكيكلوپس الذين كان كيداليون نا ، فيما يبدو ، واحدا منهم . وتقول إحدى الروايات إنه هو الذى ابتدع پاندورا (Pandora) ، أول إمرأة ، وتقول أخرى إنه خلق الإنسان ، و إن كان پروميثيوس ، سارق النار الأولى ، والصانع الأول ومنقذ البشرية ، هو من يعزى إليه هذا الفضل فى الواقع . وقد تخيل شعراء الأجيال التالية هيفايستوس فى مكان تحت أحد البراكين وأنه هو الذى يسبب فورانها . ولا عجب فى ذلك فقد كان فى الأصل إلها للنار التى فى باطن الأرض . وفى الحق أن كلمة هيفايستوس قد تعنى النار بوجه عام .

ويظهر هيفايستوس فى الإلياذة كزوج لإحدى ربات البهاء والبهجة والنعمة (Charites) ، ويحدد هسيودوس إسمها بأجليا (Aglaea) ، وأما فى الأوديسا فيظهر هيفايستوس ، أقبح الآلهة شكلا ، كزوج لأفروديتى ، أجمل الإلهات . لقد كان وحده دميا قميئاً مشوهاً على نقيض جميع الآلهة الذين كانوا نماذج لحسن القوام والرشاقة والجمال . ومع هذا فقد كان إلها خيراً داعياً للسلام محبوبا فى الأرض وفى السماء . وكان ، كالربة أثينه ، يقوم بدور هام فى حياة أثينا ، فكلاهما كان راعياً للصناعة التى تعتبر هى والزراعة دعامة الحضارة . وقد قام هو برعاية صناعة المعادن ، بينما قامت هى برعاية صناعة النسيج . وفضلا عن ذلك فإن هيفايستوس كان هو الإله المشرف على الاحتفالات الخاصة بإدماج الشباب فى هيئة مواطنى المدينة .

مغامرات ملاحى السفينة « أرجو »

Argonautica

أو

البحث عن الفروة الذهبية

هذه ليست أسطورة من نسج الخيال بل قصة لها أصل تاريخى [١] ، أبطالها جماعة من شباب هيلاس (Hellas) [٢] ، ذاع صيتهم فى غابر الزمان لأنهم قاموا بأول رحلة بحرية فى تاريخ الإغريق ، عندما تجمعوا فى مدينة يولكوس وأبحروا من ميناء أفيتاى (Aphetai) فى تساليا ، ومخروا عباب البحار بأقدم سفينة صنعها اليونان ، وهى أرجو السريعة [٣] ، فقاسوا الأهوال وتعرضوا للموت ثم بلغوا أرض كولخس (Colchis) على الشاطىء الشرقى للبحر الأسود [٤] واغتصبوا من ملكها أيتيس (Aietes) الفروة الذهبية

---

(١) Bulfinch (Th.) : *The Age of Fable*, London, 1937, p. 138.

(٢) اسم بلاد اليونان القديم الذى أطلقه الإغريق على وطنهم نسبة إلى إحدى القبائل القديمة التى استقرت هناك ، وأما الرومان فقد سموا هـذه البلاد (Graecia) ومنها اشتق الإسم فى اللغات الأوربية الحديثة .

(٣) سميت كذلك لأن اللفظ اليونانى (argos) يعنى السريع أو اللامع أو الأبيض أو لأن البطل الذى بناها كان يسمى (Argus) .

(٤) يرجح بعض الكتاب المحدثين أن كولخس كانت تقع فى أقصى الشمال من ساحل الأدرياتيك بالقرب من جزيرة كركى (Circe) عند مصب البو ، لكن هـذه رواية متأخرة لم يرد ذكرها عند كتاب اليونان ؛ قارن :

Graves (R.) : *The Greek Myths*. Edinburgh, 1955, vol. II. p. 221.

وأحضروها إلى يولـكوس استجابة لرغبة ملـكها بلياس (Pelias) .

هذا ماخص القصة التى نغنى بها المنشدون أمثال أورفيوس وسمع بها هوميروس بعد مئات السنين وأشار إليها على أنها معروفة للعالمين [١] ، ومن بعده ذكرها شعراء كثيرون وتناولوها بالايجار أوالتفصيل ؛ منهم پنداروس الذى ترنم بها فى نشيد بأكمله [٢] ، ويوريپيديس الذى أخذ عنها موضوع مسرحية ميديا (Medea) وهى من أروع مسرحياته ، وأبوللونيوس الرودسى الذى فصل أحداثها فى ملحمة سماها « مغامرت السفينة أرجو » (Argonautica) .

وكان من الطبيعى أن يُدخل كل أديب على موضوع القصة ما يرى من تعديلات وإضافات تناسب الفن الأدبى الذى كتب فيه وتتفق مع الاتجاهات الدينية والاجتماعية والسياسية فى القرن الذى عاش فيه ؛ وكان من الطبيعى أيضا أن تتعدد الروايات وتتشعب التفاصيل وتتضارب الوقائع ، ولهذا السبب سوف لا نتعرض للتغييرات التى لحقت بها على مر العصور بل سنكتفى باستخلاص الحقائق الجوهرية التى اشتملت عليها منذ نشأتها .

• • •

---

(١) الأوديسا : ١٢ : ٤٠ .
(٢) البيتية الرابعة .

كان أثماس (Athamas) ملكا على أورخومينوس (Orchomenus) بولاية بويوتيا ، وقد أنجب من زوجته نيفلي (Nephele أى السحاب) ابنه فركسوس (Phrixus) وابنته هيلي (Helle) ؛ و بعد سنوات ضاق بزوجته وهجرها وتزوج إمرأة غيرها تدعى إنو (Ino)، سرعان ما كرهت فركسوس وهيلي . و بدأت تفكر فى حيلة للتخلص منهما؛ فواتتها الفرصة عندما تعرضت البلاد لجفاف شديد ذهب بالأخضر واليابس فانتشرت المجاعة بين الناس، وأرسل الملك يستشير نبوءه دلفى و يسألها النصح ؛ ولما عاد الرسل يحملون رد الوحى قابلتهم إنو وأمرتهم أن يحرفوه و يخبروا الملك بأن النبوءة تنصحه بتقديم ابنه قربانا لزيوس إن أراد ان ينقذ شعبه ؛ فأذعن أثماس ووافق على تحقيق النبوءة وقرر أن يضحى بابنه ؛ ولكن ما أن اقترب فركسوس من المذبح حتى رفعه إلى السماء كبش ذو فروة ذهبية مع أخته هيلي وحملهما مسرعا متجها صوب آسيا . و بينما كان يعبر بهما المضيق الذى يفصل آسيا عن أوروبا سقطت هيلي فيه ولذا سماه اليونان بحر هيلي (Hellespontus) (الدردنيل الآن) ؛ أما فركسوس فقد وصل أرض كولخس وهناك نحر الكبش وقدمه قربانا لزيوس حامى اللاجئين ، وقدم فروته الذهبية هدية لأيثتيس ملك البلاد فعلقها فوق شجرة من أشجار البلوط نبتت فى غابة مقدسة لآريس ، إله الحرب . وعهد بحراستها إلى تنين يقظ . ثم كافأ فركسوس بأن زوجه ابنته خالكيوپى (Chalciope).

وكان أيسون (Aeson) ابن عم فركسوس يحكم أيضا قوما من المينيين[1] فى ولاية يولكوس (Iolcus) ، ثم خرج عليه أخوه پلياس (Pelias) وخلعه من العرش واغتصب ملكه ، وأصبح ايسون لا يفكر إلا فى إنقاذ ولده الصغير ياسون (Iason) ، فقرر أن يعهد به إلى المربى العظيم خيرون[2] (Chiron) الذى كان يقيم على سفح جبل پليون فى ثساليا ؛ فتولاه برعايته ونشأه تنشئة صالحة ؛ ولما أصبح ياسون شابا قوى العضلات ، متين البنيان ، صمم على العودة إلى بلده ليسترد ملك أبيه من عمه الذى لم يهدأ له بال بعد أن طرد أخاه ، لأن ضميره ظل يؤنبه على جرمه ويبعث الاضطراب فى نفسه وينذره بمستقبل رهيب ، فاضطر إلى أن يسأل الوحى عن مصير حكمه وطول عهده ، فرد عليه بنبوءة تحذره من الرجل « ذى النعل الواحد » ؛ ولم يكن هذا الشخص إلا ياسون[3] الذى

---

(١) نسبة إلى ميناس (Minyas) الجد الأول لهذا الشعب ، وجدير بالذكر أن أبطال السفينة أرجو كانوا يلقبون فى كثير من الروايات بالمينياى (Minyai) لأنهم كانوا ينحدرون من هذا الشعب أيضاً ؛ راجع ص ٧٠ أعلاه .

(٢) أشهر المخلوقات المعروفة باسم كنتاوروى(Centauri ، المفرد Centaurus) وكان لها رأس إنسان وجسم حصان ؛ وكان خيرون أحكم هذه المخلوقات وأكثرها علماً ، برع فى فن الطب والموسيقى وذاع صيته فى أنحاء اليونان ولذا تتلمذ عليه كثير من أبطالها .

(٣) كان اسمه الحقيق ديوميديس (Diomedes) ثم سمى ياسون (الطبيب المداوى) بعد أن تعلم فن الطب وبرع فيه ، ومن هذه الكنية اشتق اسمه فى اللغات الأوربية الحديثة (Jason) .

وجد ، عند عودته إلى يولكوس ، عجوزا شمطاء[1] تجلس إلى ضفة نهر أناوروس (Anaurus) ، فطلبت إليه أن يحملها ويساعدها على إجتياز هذا النهر المتدفق ، فاشفق عليها وحملها فوق ظهره وشق طريقه فى الماء ، وعندئذ فقد أحد نعليه وهو يقاوم التيار الجارف ؛ ولما عبر النهر سالما ذهب إلى يولكوس ؛ وما أن دخلها حتى امت إليه الأنظار بقوامه الممشوق وطلعته البهية ، فالتف حوله القوم وسألوه من يكون وما اسمه ، فأطلعهم على كل شىء وسألهم أن يرشدوه إلى قصر بلياس . فلما بلغه طلب مقابلة عمه ، وما أن رآه المغتصب حتى اضطرب وارتجف وتذكر النبوءة وأدرك الخطر الذى يتهدده ، ولكنه سرعان ما استجمع قواه ، ورحب بالضيف وسأله عن اسمه ، فلما عرف أنه ياسون ابن أخيه تظاهر بالفرح للقائه ، وتقدم نحوه وعانقه واستقبله استقبالا كريماً وقال : « تعال يا بنى ! اختر من تريد من بناتى الثلاث وخذها زوجة لك لترثنى وتحكم من بعدى » .

فرد عليه ياسون فى هدوء : « لقد جئت ، ياعماه ، لاسترد ملك أبى الذى وهبه زيوس إياه ، وخير لنا أن نحتكم إلى العقل ولا نلجأ إلى القتال ، فاحتفظ بالثروة كلها ، والقطعان والماشية التى تملكها ، فأنا لا أريد منها

(١) هذه العجوز لم تكن إلا هيرا ، زوجة زيوس ، التى تنكرت فى صورة امرأة مسنة ضعيفة لتختبر مروءته ، فلما استجاب إلى طلبها قررت أن تقيه من كل سوء وتذلل له كل صعب اعترافاً بجميله .

شيئاً ، ولا أطالب إلا بعرش أبى » . فابتسم عمه وقال : « لك ما طلبتَ يا بنى إذا أنجزت هذه المهمة . . إن روح ابن عمك فركسوس الذى مات مغتربا ، تأمرنا بإرجاع الفروة الذهبية إلى أرض الوطن لتعود معه روحه وتقيم بيننا ، وأنت ترى أن شيخوختى تحول بينى و بين القيام بهذه المهمة ، فهل لك ، يا ابن أخى ، أن تعفى عمك من هذا العبء الثقيل ؛ وأقسم بزيوس أننى سأتخلى عن الملك وأتنازل لك عن كل شىء عند عودتك . لقد أقسم بلياس هذا القسم لأنه كان على يقين من أن ياسون لن يستطيع الحصول على الفروة ولن يعود بها أبداً .

لـكن الشاب الجرىء وافق على القيام بهذه المهمة ، وسأل عمه أن يعاونه فى الاستعداد لها . وطلب إليه أن يبعث برسل من لدنه يطوفون بشباب المينيين و يحثونهم على الاشتراك معه فى هذه المغامرات . واستطاعت هيرا أن تملأ قلوبهم حماساً وتدفعهم دفعاً إلى الرحيل مع ياسون . وكان فى طليعة الأبطال[1] الذين أسهموا فى هذه الرحلة : هيرا كليس وحبيبه هيلاس (Hylas) ولا أرتيس أبو أوديسيوس وكاستور و بولوكس (Castor & Pollux) و پليوس أبو أخيليوس وتسيوس (Theseus) وأرجوس(Argus) وأورفيوس أمام المنشدين ، جاءوا جميعا إلى يولـكوس

(١) يقال إن اثنين وخمسين بطلاً اشتركوا فى هذه الرحلة . وجدير بالذكر أنهم جميعاً كانوا من سلالة الآلهة .

وشرعوا فى تقطيع أشجار الصنوبر من جبل پليون وعلمهم أرجوس صناعة السفن فصنعوا سفينتهم وثبتوا فى مقدمتها غصنا من البلوط ، شجرة زيوس المقدسة . ثم قدموا قربانا لكبير الآلهة وزوجته[1] ؛ ثم دشنوا « أرجو » وأنزلوها إلى اليم واقلعوا من ميناء أفيتاى فى تساليا وضربوا فى عرض بحر إيجة متجهين نحو المشرق . وهكذا بدأت رحلة الأرجو التى أسهم فيها أورفيوس وتغنى بها .

لقد كانت مغامره شاقة واجهتهم فيها صعاب وصادفتهم أهوال واعترض سبيلهم عمالقة أشرار وأبطال متوحشون ونساء مقاتلات ضاريات ولكنهم قابلوا فيها أيضاً حسناوات محبات وحوريات فاتنات وعرافين صادقين وملوك أسخياء ؛ وهذا وصف بعض الأحداث التى جعلت رحلتهم مضرب الأمثال وحققت لهم شهرة لم تحرزها أساطيل انجلترا وفرنسا وتركيا وروسيا التى جابت هذه المياه .

وكانت جزيرة لمنوس أول مرفأ نزل به البحارة ليستريحوا من وعثاء الطريق . فراعهم أن الجزيرة لايسكنها إلا نساء دفعتهن الغيرة إلى قتل الرجال جميعا ما عدا ملكهن الذى أنقذته ابنته هيبسيبلى

(١) وفى رواية أخرى أنهم قدموا القرابين لأبوللون الذى كان يبارك السفن عند إقلاعها من الموانى .

(Hypsipyle) بأن وضعته فى صندوق مجوف وجعلته يطفو فوق سطح الماء حتى حمله إلى بر النجاة ، ولكن من الغريب أن هؤلاء النساء المتوحشات أكرمن وفادة الأبطال وزودنهم بالمؤن وودعنهم بنفس الحفاوة التى استقبلوا بها .

وغادر ياسون ورفاقه الجزيرة واتجهوا إلى مضيق الدردبيل ثم دخلوا بحر پروپونتس (Propontis وهو بحر مرمره) ، ثم جنحوا إلى شاطئه ونزلوا يتريضون فى المروج التى نمت بجانبه ، وبعدئذ أخذوا يعدون وجبة العشاء ويهيئون لأنفسهم فراشاً وثيرا من الأغصان الخضراء والأعشاب النضرة ، وانصرف هيلاس ، صديق هيراكليس ، يملأ جرته النحاسية ماء عذبا ، فوجد ينبوعا صافيا ينبثق بين الكلأ الأخضر واللبلاب المزهر ، وفى وسطه ثلاث حوريات زرق العيون ، يرقصن ويمرحن معا ، فاقترب الغلام من النبع وانحنى ليملأ إناءه ، فأسرعن إليه وتعلقن بذراعه وجذبنه إلى قاع الينبوع فسقط بينهن يصرخ ويبكى ، فأخذن يلاطفنه ويسرين عنه بأعذب الألفاظ ويعبرن له عن إعجابهن بجماله وحبهن له ورغبتهن فى الاحتفاظ به . وهكذا اختفى هيلاس إلى الأبد ؛ لكن صديقه هيراكليس لم يطق على غيابه صبرا فثارت ثائرته وحمل هراوته وانطلق يضرب فى أرجاء المنطقة يبحث عن حبيبه ويصيح منادياً : « هيلاس ! هيلاس! » والغلام يجيبه من جوف الماء بصوت خافت لا يبلغ مسامعه . وأصر

هيراكليس على البقاء فى ميسيا وأقسم ألا يغادر الإقليم قبل أن يعثر على صديقه وظل يقطع الأرض نهباً ، يزأر فى الأدغال ويجوس خلال الأحراش ونسى « أرجو » من فيها وبقى حيث كان لا يفكر فى زملائه الذين انتظروه طويلا ، فلما يئسوا من عودته ، اضطروا إلى الرحيل وقد استولى عليهم حزن عميق لفراق سيد الأبطال وحبيبه هيلاس [1] .

ووصل الأبطال أرض بثينيا (Bithynia) التى كان يحكمها الملك أميكوس (Amycus) . وكان رجلا صلفا فظا غليظ القلب ، لا يستريح إلى الأجانب ولا يرحب بالغرباء الذين يفدون إلى مملكته بل كان يضايقهم ويتحداهم فى الملاكمة والمصارعة ، يفوز عليهم دائماً لأنه كان كالعملاق الضخم ، قوى البنيان ، مفتول العضلات ، عريض الصدر ، منتفخ الأوداج فلما رأى بحارة أرجو ، أغلظ لهم القول وأمطرهم وابلا من الشتائم ، فلم يعاملوه بالمثل بل ردوا عليه فى أدب جم وأكدوا له أنهم لا يضمرون له شراً أو يريدون به سوءاً . لكنه تمادى فى غطرسته وطلب إليهم أن يختاروا أبرعهم فى الملاكمة ، وعندئذ انبرى له پولوكس (پوليديوكيس Polydeuces) ، الملاكم اليونانى الخطير والمصارع الذى لا يقهر ، وقبل التحدى ؛

---

(١) يقال فى بعض الروايات إن هيراكليس ظل يبحث عن هيلاس حتى وصل كولخيس سيراً على الأقدام ، أنظر : ديوان ثيوكريتوس : ١٣ ؛ ابوللونيوس : ملحمة الأرجوناوتيكا : ١ .

واحتشد أتباع الملك وتجمهر أبطال أرجو واصطفوا جميعاً ليشاهدوا المباراة؛ ثم لف الغريمان حول أيديهما وأذرعتهما شرائط من جلد البقر ، وهتف أبناء ببنيا عاليا « النصر المبين لملكنا والهزيمة الماحقة لعدونا » . وبدأت المعركة وسرعان ما أظهر بطل الإغريق براعة فائقة فى تسديد ضرباته ومهارة بالغة فى تفادى لكمات خصمه العنيد الذى أذهلته المفاجأة وأثارت حفيظته فامتلأ غيظا وتطاير الشرر من عينيه واندفع كالوحش الضارى ليفتك بفريسته ، لكن سرعة پوليديوكيس وخفته ومهارته فى الهجوم على عدوه جعلت أميكوس مثاراً للسخرية لأن هجماته ذهبت هباء وضرباته ضاعت سدى . وأحس خصمه بالتفوق عليه فغافله وسدد إليه ضربة قاصية هشمت أنفه ، فزاغ بصره وأصابه دوار شديد ، وانتهز غريمه الفرصة فامطره وابلا من الضربات التى أدمت فمه ومزقت أذنه فترنح وسقط على الأرض مغشيا عليه ، فصاح به أتباعه ليقوم ويصمد فى الجولة ولكن هيهات لقد خارت قواه وسالت دماؤه وتصبب عرقه واصفر وجهه وأصبح كالموتى بلا حراك[1] . وهكذا دفع ثمن غروره وتجبره وتعلم كيف يكرم الضيوف الغرباء . وفى رواية أخرى يقال إنه مات فعلا وإن شعبه أراد أن يثأر له من عدوه ، فهرعوا إلى أسلحتهم وهاجموا بحارة السفينة

(١) أنظر ثيوكرتوس : القصيدة : ٢٢ حيث يصف هذه الملاكمة وصفاً مفصلاً .

« أرجو » ، لكن هؤلاء ردوهم على أعقابهم واستولوا على قصر الملك ونهبوه قبل مغادرة البلاد .

و بعدئذ اتجهت السفينة إلى مدينة ساليوديسوس (Salmydessus) على ساحل طراقيا ونزل البحارة هناك ليسألوا العراف فنيوس (Phineus) عن مصير رحلتهم و يعرفوا منه شيئاً عن الصعوبات التى ستواجههم لأن فنيوس كان يعلم الغيب و يتنبأ بالمستقبل و يطلع الناس على ما يدبره زيوس لهم ، لذلك استاء منه رب الأرباب وصب عليه جام غضبه وعاقبه عقاباً أليماً ، فكان كلما حان موعد غذائه أرسل عليه طيوراً جارحة تعرف بالهاربياى (Harpyiai أى الخاطفات[1]) ، فكانت تحوم حول الطعام وتلوثه وتجعله كريه الرائحة فيشمئز منه الشيخ ولا يقربه ، فضعف وذوى عوده ووهن منه العظم وأصبح نحيلا كالطيف الزائل ، ورآه أبطال السفينة فرثوا لحاله وأشفقوا عليه ووعدوا بمساعدته ، فأعدوا له طعاماً شهياً وعهدوا بحراسته إلى اثنين منهم هما كاليس (Calais) وزيتى (Zethé) ابنا بورياس (Boreas) ريح الشمال العاتيه ، فوقفا بجانبه وأمسكا سيفهما

---

(١) الهاربياى هى حفيدات إله البحر (Pontus) والنهر (Oceanus) صورها اليونان على شكل طيور لها وجه إمرأة ، كريهة الرائحة ، تخطف الطعام وتلوثه ، لكن هوميروس وهيسيودوس وصفاها بأنها رياح عاصفة تكتسح الناس أمامها وتشتت شملهم .

ليدرءا هذه الطيور عنه ويحمياه منها ، فما أن وضع فنيوس أول لقمة فى فمه حتى هبطت من السماء ودهمته والتهمت كل شىء فى لمح البصر ، وتركت وراءها رائحة كريهة ، لكن الحارسين لحقا بها فى سرعة خاطفة وأنقضا عليها بسيفهما وكادا يجهزان عليها لولا أن تدخلت إريس[1] (Iris) ، رسولة الآلهة ، وأقسمت لهما أن هذه الطيور لن تزعج الشيخ أبداً وأنه سيقضى بقية أيامه آمنا مطمئنا ، فاغتبط البطلان وعادا أدراجهما وابتهج العراف وشكر للبحارة صنيعهم وحذرهم من الأخطار التى تحف برحلتهم وعلمهم كيف يتجنبون الارتطام بصخور سيمبليجاديس[2] (Symplegades) حتى لا يكتب عليهم الهلاك كما كتب على الذين اصطدموا بها من قبل ونصحهم قائلا : « عندما تقربون هذه الصخور ، أطلقوا يمامة وراقبوها ؛ فإن مرت من بينها سالمة ، اقتفوا أثرها واجتازوا الصخور وستكتب لكم النجاة وتصلون أرض كولخس بسلام ؛ أما إذا هلكت اليمامة فعودوا أدراجكم

---

(١) إلاهة قوس قزح ورسولة الآلهة وبخاصة هيرا ، وهى سقيفة الهاربياى .

(٢) وتسمى أيضاً بلانكتاى (Planctae) ، وكانت تقع فى نهاية بحر مرمرة فى جهة الشمال عند مدخل البحر الأسود ، ويقال إنها كانت دائمة الحركة ، تدور حولها دوامات خارقة من الماء الساحق حداً ، فإذا ما اقتربت منها سفينة أحاطت بها من كل جانب وحطمتها وأغرقت من فيها ، وكانت أرجو أول سفينة اجتازتها بسلام ، ومنذ ذلك الحين استقرت الصخور فى مكانها ولم تعد تتحرك منه أبداً .

ولا تفكروا فى الحصول على الفروة الذهبية لأنكم لن تصلوا إليها أبداً » .
وأقلعت السفينة وعمل البحارة بنصيحته عندما اقتربوا من تلك الصخور ، فشقوا طريقهم بينها سالمين ثم اجتازوا بحر يوكسينوس (Euxenus أى الذى يرحب بالغرباء وحاليا البحر الأسود) ، ومروا بأرض الأمازون[1] (Amazonides) وتجنبوا الاشتباك معهن ، و بعدئذ ألقوا نظرة على جبال القوقاز حيث شاهدوا پروميثيوس (Prometheus) مكبلا فى أغلاله ، مشدوداً إلى صخرة عاتية بينما ينقض عليه نسر و ينهش كبده . لكنهم لم يتوقفوا عن السير وتابعوا رحلتهم حتى وصلوا أرض كولخس . وعندئذ هتف بهم ربان السفينة قائلا : « هلموا لقد بلغنا غايتنا . فهذه قصور أيثيس . وهذه أراضيه ! ولكن ياترى أين توجد الفروة الذهبية ؟ وكم من مشقة سنواجه قبل الاستيلاء عليها ؟ » ؛ فرد عليه ياسون فى جرأة وقال : « لاتخافوا شيئا . فسوف أذهب إلى الملك وحدى. وسوف أتحدث إليه فى أدب جم ، فهذا خير من القتال » . وكان أرباب أوليمبوس يفكرون فى الأبطال دائما . فعندما أحست هيرا بالخطر الذى يحف بهم ذهبت إلى أفروديتى رغم مابينهما من نفور . وطلبت إليها أن تساعدهم . فوعدتها أن

---

(١) جماعة من النساء المحاربات كن يعشن بالقرب من سواطىء البحر الأسود ، وسمين كذلك لأنهن تخلصن من الثدى الأيمن لبتمكن من استعمال القوس بسهولة ، ومن المعروف أنهن حاربن مع الطروادبين ضد اليونان .

تبذل أقصى جهدها واتفقت معها على أن ترسل ابنها إيروس إلى ميديا ، ابنة الملك ليصيبها بسهم من سهامه التى لاتخطىء و يشعل قلبها ناراً بحب ياسون فتستخدم فنون السحر التى تتقنها لمساعدته فى تحقيق مهمته . وذهبت أفروديتى إلى إيروس وتوسلت إليه أن يفعل ذلك فاستجاب إلى طلبها وحمل قوسه وجعبته وانطلق من ذرى أوليمبوس سابحاً فى الفضاء ووصل كولخس فى نفس الوقت مع الأبطال الذين اتجهوا إلى قصر الملك ، فاستقبلهم الحراس استقبالا كريما ، ثم أخبروا سيدهم بوجود البحارة ، فأسرع إلى لقائهم ورحب بهم وأصدر أوامره بإشعال النار و إعداد ماء ساخن يغتسلون به وطعام فاخر يأكلونه . وعندئذ تسللت الأميرة ميديا لترى الزائرين فوقع بصرها على ياسون ، وفى نفس اللحظة رماها إيروس بسهم أصاب أعماق قلبها ، فاشتعل فؤادها ناراً وذابت روحها أسى وتصبب جبينها عرقاً واضطربت اضطراباً شديداً ، فلم تجد بداً من الانسحاب إلى غرفتها حتى لايفتضح أمرها .

و بعد أن أكل الأبطال وشربوا سألهم الملك من هم ومن أى بلدٍ أتوا ولماذا ؟ وأجابه ياسون قائلا : « إننا جميعاً من نبلاء اليونان الذين ينحدرون من سلالة الآلهة ، جئنا نطلب الفروة الذهبية ، ونعرض عليك

خدمانا مقابل ذلك ، فنحن على أتم استعداد لنقاتل أعداءك ونحمى ديارك » ..

فضاق الملك بكلامه لأنه كان لا يحب التدخل فى شئونه ولا يرحب بإقامة الأجانب فى بلده ، ومع ذلك فقد كتم غيظه وهمس فى نفسه : « كم بودى أن أقتلهم ، لكنهم ، وا أسفاه ، أكلوا فى بيتى » .. ، ثم خطرت له هذه الفكرة فقال : « إننى لا أكره الأبطال وخاصة المغامرين منهم ، سوف أعطيكم الفروة الذهبية إذا أثبتم شجاعتكم وقمتم بما سبق لى أن قمت به ؛ لقد استطعت أن أشد إلى المحراث ثورين ، أقدامهما من البرنز وأنفاسهما من لهيب النار ، وسيطرت عليهما وحرثت حقلا من أرضى وبذرت فيه أسنان تنين كانت تنبت فى الحال رجالا مسلحين إستأصلتهم فى الحال حتى لا يستفحل أمرهم . هذا عملى الذى قمت به ؛ ومازال الثوران عندى . فمن منكم يريد القيام به ؟ فإن أعطى الفروة لشخص أقل منى شجاعة » . وكان الامتحان رهيبا وأداؤه مستحيلا ، لأنه فوق طاقة البشر . لذا لزم ياسون الصمت برهة ثم قال : « قبلت المهمة رغم بشاعتها . وسأقوم بها حتى لو كان الموت نصيبى » . ثم نهض ورجع مع زملائه إلى السفينة ليقضوا بها ليلتهم .

لكن ميديا تابعته بأفكارها وتخيلته أمامها وظلت تتأمل جماله ورشاقته وتسترجع ألفاظه ؛ إنها لم تر له فى الوجود مثيلا . لقد أحبته من كل

قلبها ، فكيف تتركه يموت . إن الحياة بدونه ليس لها معنى . وهكذا لم تنم الليل وظلت فريسة الأوهام والآلام حتى أشرق الصبح .

وقضى الأبطال ليلتهم يناقشون اقتراح الملك ، وأبدى كل منهم استعداده للقيام بالمهمة بدلا من ياسون ، لكن عبثاً حاولوا إقناعه ، فقد أصر على أدائها بمفرده . وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ، جاءهم أمير من أحفاد الملك وأطلعهم على براعة ميديا فى السحر وأكد لهم أنها تقدر على كل شىء ، تحجب النجوم وتخسف القمر ، وإن شاءت مكنت ياسون من الثورين واخضعتهما له ونجته من أسنان التنين وكتبت له نصراً مبيناً . وعندئذ طلب الأبطال إلى الرسول أن يعود إلى ميديا ويستدر عطفها لأنهم كانوا لا يعرفون جنون الحب الذى مسها . ورجع الأمير إليها ، فوجدها تبكى فى فراشها ، تؤنب نفسها وتتمنى الموت . يا لها من مسكينة بائسة استسلمت لعاطفة جارفة أنستها كل شىء ! لقد رأى الأمير فى يدها صندوقاً صغيراً مملوءاً بالأعشاب السامة القاتلة ، أمسكته وأخذت تتأملة وتفكر فى الحياة ومباهجها وتنظر إلى أشعة الشمس وتحس بدفئها ، ثم ألقت الصندوق فجأة وقررت أن تساعد حبيبها بأن تعطيه مرهماً سحرياً إذا مسح به جسمه وقاه من كل خطر طيلة النهار ، فلا يؤذيه شىء ولا يصيبه مكروه ؛ وطلبت إلى ابن عمها الأمير أن يذهب إلى ياسون ويخبره بحبها

ويقسم له « أن ميديا ستساعده وتخلص له ولن تتخلى عنه أبداً وأنها تريد مقابلته فى الحال » . وعاد الأمير إلى ياسون وأنبأه الخبر ، فطار فرحاً وهرع للقائها وعندئذ أكسبته هيرا بهاءً فوق بهائه ، وزادته تألقاً . فلما رأته ميديا ، خارت قواها ، ونبض قلبها وغشى بصرها ووقفت جامدة فى مكانها ، ووقف ياسون أمامها وقال : كيف أصف نبلك ؟ وكيف أصور حبى لك ؟ إنك أملى وحياتى » ، فاقتربت منه وهى صامتة لأنها لم تستطع أن تعبّر عما يجول بخاطرها ، ثم أخرجت من صدرها العلبة وأعطتها إليه فى هدوء وكأنها تريد أن تقول : « خذ هذه ولك روحى إن طلبتها » . وساد الصمت برهة ثم شرحت له كيف يستخدم السحر وكيف يمسح به بدنه وأسلحته حتى لا يقهر ، وأخبرته أن يلقى حجراً وسط الرجال المسلحين الذين ينبتون من أسنان التنين ليبعث فيهم الفوضى والاضطراب فيقاتلون بعضهم بعضاً ويهلكون جميعاً ، ثم قالت له : « والآن يجب أن أعود إلى القصر ، ولعلك تذكرنى عندما ترجع إلى بلدك آمناً لأننى سأذكرك دائماً » . فرد عليها ياسون : « لن أنساك وسوف أفكر فيك ليلا ونهاراً ، وإن جئت إلى اليونان معى ، سأجلك وسوف ننعم بالحياة معاً ، فلن أتركك أبداً ولن يفرق بيننا إلا الردى » ؛ وعادت ميديا إلى القصر تندب حظها وتبكى جرمها وتندم على خيانتها ، وعاد ياسون إلى السفينة . وهناك مسح جسمه بالمرهم فأحس بقوة خارقة

تدب فيه ثم ذهب مع زملائه إلى الحقل حيث انتظرهم الملك مع جمع غفير من شعبه .

وما أن وصل الأبطال إلى هـذا المـكان حتى اندفع الثوران من حظيرتهما والنار تندفع من أنفهما ، فتقدم إليهما ياسون وصمد لهما كأنه صخرة عاتية تقـاوم أمواجاً جارفة . وأمسكهما واحداً بعد الآخر ولوى رأسهما إلى ركبته ثم شدهما إلى المحراث وسط هتاف الحاصرين الذين أذهلتهم شجاعته وأفزعتهم قوته . وقبض ياسون على المحـراث ودفع الثورين ، وبدأ يحرث الحقل ذهاباً وجيئة ، ويبـذر أسنان التنين فى الخطوط التى يحفرها ، وما أن انتهى من حرثه حتى شاهد رجالا مسلحين يخرجون من بطن الأرض ويهجمون عليه ، فرمى بينهم حجراً ضخما ألقى الذعر فى قلوبهم ، فاضطربت جموعهم ودارت رحى الحرب بينهم فخروا صرعى شرورهم . وهكذا انتصر البطل وحزن الملك الذى عاد إلى قصره ليدبر للأبطال مؤامرة تمنعهم من أخذ الفروة الذهبية . لـكن هيرا كانت لا تغفل عنهم ، فدفعت ميديا إلى اتخاذ قرار حاسم ، وصممت الأميرة على ترك الأهل والوطن والرحيل مع ياسون . ولما أرخى الليل سدوله ، تسللت ميديا من القصر وذهبت إلى حبيبها فى السفينة حيث وجدته يحتفل مع زملائه بالنصر ، فارتمت عند أقدامهم وتوسلت إليهم أن يأخذوها معهم إلى اليونان ، وأخبرتهم أن يذهبوا فى الحال لأخذ الفروة وطلبت إليهم أن

يغادروا البلاد فوراً حتى لا يتعرضوا للهلاك وأكدت لهم أنها سوف تسحر الأفعى التى تحرس الفروة لتقيهم شرها . ولما انتهت من كلامها رفعها ياسون من على الأرض وعانقها ووعدها بالزواج بعد عودتهم ؛ وحملها معه فى السفينة التى اتجهت نحو الدغل المقدس حيث علقت الفروة الذهبية ؛ فلما وصلوا إليها تقدمت ميديا نحو الأفعى المخيفة وترنمت بأنغام شجية وأنشدت نشيداً عذباً وظلت تردده حتى تخدرت الأفعى ونامت ، وعندئذ توجه ياسون إلى الشجرة وأخذ الفروة العجيبة ثم أسرع الجميع إلى السفينة وجلسوا إلى مجاديفهم واتخذوا سبيلهم فى البحر عجبا .

وعلم الملك بما حدث ، فثارت ثائرته ، وأرسل من فوره ابنه أپسيرتوس (Apsyrtus) على رأس جيش كبير ليلحق بهم حتى لا يتمكنوا من الفرار . لكن ميديا أنقذتهم للمرة الثانية بأن ارتكبت جرماً شنيعاً آخر ، إذ بعثت لأخيها رسولا تخبره بأنها استولت على الفروة وتستطيع إحضارها إلى القصر إذا قابلها ليلا فى مكان حددته له . ولم يشك أپسيرتوس فى كلام الرسول ولا فى نوايا أخته ، فلم يتردد فى الذهاب إليها . وما أن بلغ المكان الموعود حتى أجهزت عليه بالاشتراك مع ياسون . ولما علم الجيش بالخبر ، اضطربت صفوفه واستولى عليه الذعر فتشتت الجند وكفوا عن مطاردة البحارة الذين فروا ونجوا بأنفسهم . وهناك رواية أخرى تقول إن شقيق ميديا

لحق بها وركب السفينة ليفر معها إلى اليونان فاضطر أبوها لمطاردتهما . ولما اقترب من الأرجو ، قتلت ميديا أخاها وقطعته إرباً وألقته فى البحر لينصرف أبوها إلى جمع أشلائه من الماء فلا يلحق بالسفينة ومن فيها . وهكذا نجا ملاحو «أرجو» من انتقامه الشديد وقفلوا راجعين إلى أرض الوطن.

ولكن أى طريق سلكوا ؟ و بأى أرض نزلوا ؟ فهذه أمور ما زالت غامضة ، اختلف فيها الرواة وحار فيها المحدثون ، فتعددت آراؤهم لذا رأينا ألا نقف عند التفاصيل و نكتفى بالإشارة إلى الحقائق التى تضمنتها أصدق الروايات وأخذ بها معظم النقاد .

فسواء رجع البحارة عن طريق الأدرياتيكى وسحبوا سفينتهم عبر جبال الألب أم اتجهوا جنوباً وضربوا فى عرض البحر الأحمر ومروا ببلاد الحبشة أم ساروا غرباً حتى وصلوا إلى ليبيا وشدوا مركبهم فوق الرمال المحرقة وأسسوا برقه ثم أبحروا إلى مصر وشاهدوا عجائبها ، فالأمر الذى لاشك فيه أنهم مروا بالأماكن التالية وواجهوا الصعوبات التى سنذكرها.

فعند ما اخترقت السفينة البحر التيرانى واقتربت من شواطىء إيطاليا الجنوبية سمع الأبطال أنغاماً عذبة تأتيهم من جزيرة قريبة ، فأصغوا إليها لكن ميديا حذرتهم منها وقالت : « انتبهوا جميعاً ! إننا على مقربة من صخور تقطنها حوريات ذات أصوات مهلكة ، إننا مضطرون إلى

الاقتراب من تلك المنطقة لأننا لا نستطيع تجنبها ، ولـكن علينا أن نضع أصابعنا فى آذاننا حتى لا نسمع أصواتهن و إلا هلـكنا جميعا » . فرد عليها أورفيوس[١] (Orpheus)، إمام المنشدين : « لا تخافى ولا تحزنى، سوف أتبارى مع تلك الحوريات[٢] لنرى أينا يستولى على ألباب السامعين، لقد أشجيت بأنغامى الأشجار والحجر ، فما بالك بقلوب البشر ! » ، وأمسك بقيثارته وأخذ يعزف أعذب الألحان ، ولـكنه لم يستطع ، فى بادئ الأمر ، أن يجذب إليه الملاحين الذين كانوا يصغون باهتمام إلى هذه الأصوات الحالمة لأنهم لم يسمعوها من قبل ، فسرت فى أبدانهم حمى شديدة جعلتهم يصيحون و يهتفون : « هيا بنا إلى الحوريات ، فلنقترب منهن ! هلموا نتمتع بصوتهن الرخيم » ، وعندئذ نادت ميديا أورفيوس وقالت : « أسرع وغننا لحناً شجياً لتعيد هؤلاء البحارة إلى صوابهم ، أسرع لتنقذهم من

---

(١) منشد عاش قبل هوميروس بعدة قرون (١٢ ق. م ؟) ، اشتهر براعة فى الإنشاد والعزف على القيثارة ، ويقال إنه كان يسحر الوحوش والصخور بأغانيه العذبة وألحانه الشجية .

(٢) المقصود هنا السيرنيس (Seirenes) وهن مجموعة من حوريات الماء كن تجذبن البحارة بصوتهن الرخيم وتدفعهم إلى الهلاك ، ولقد نجا أبطال أرجو من شرهن بفضل أورفيوس ، أما أدوسيوس فقد تجنب خطرهن بأن ملأ آذان أصدقائه بالشمع ثم طلب إليهم أن يشدوه إلى صارى السفينة ليقاوم إغراءهن .

الهلاك » . فاستجمع قواه وأنشدهم نشيد برسيوس[1] (Perseus) ، وتغنى لهم بشجاعته التى حققت له الخلود فأصبح نجما يتألق فوق ذرى الألمبوس يقدسه الناس أجمعين ، وعندئذ عاد الأبطال إلى صوابهم وصاحوا « هيا بنا إلى أرض الوطن ! هيا لنصبح رجالا خالدين مثل برسيوس ، ما لنا وهذه الحوريات اللاتى تدفعنا إلى الهلاك » . ثم اتخذوا أماكنهم وانصرفوا إلى التجديف ونسوا الحوريات وألحانهن ، وعز على هؤلاء أن يفقهن أورفيوس بأنغامه ، فاستشطن غيظاً وامتلأن حقداً وغيرة . فألقين بأنفسهن فى عرض البحر وتحولن إلى صخور منذ ذلك الوقت[2] .

أما ياسون ورفاقه فاتجهوا إلى جزيرة صقلية حيث داهمهم خطر أشد ؛ فعندما دخلوا مضـــيق مسينا فاجأتهم دوامة عنيفة اسمها خاريبدس (Charybdis) كادت تحطم سفينتهم كما حطمت غيرها من قبل ، وكانت هذه الدوامة تقع قبالة وحش فظيع يسمى سكيلا (Scylla) كان يفترس ملاحى السفن التى تمر بالقرب من كهفه عند مدخل المضيق ، لذا كان

---

(١) من أشهر أبطال اليونان ، أنجبه زيوس من دنائى (Danaé) ابنة ملك أرجوس ، وقد قتل ميدوسا ، ودهب إلى آسيا وأقام بها ، وهناك أنجب ابنه برسيس (Perses) الذى حكم بلاد فارس .

(٢) ورد فى رواية أخرى أن هذه الحوريات عاشت حتى أيام أدوسيوس وأنها أغرقت نفسها بعد أن نجا منها .

الخطر يحدق بالسفن من كل جانب ، فإن أراد البحارة تجنب خاريبدس وقعوا فى براثن سكيلاّ ، فكانوا، كما قال القدماء ، كالمستجير من الرمداء بالنار . ولكن آلهة الألوليمپوس شاءوا أن يكتبوا النجاه لبحارة الأرجو . فبينما هم فى حيرة من أمرهم يفكرون فى مصيرهم المحتوم ، إذا بعروس البحر ثيتس ،وروجة پليوس، أحد ملاحى السفينة ، تطفو فوق سطح الماء ، ومعها صديقاتها ، وأخذن يسبحن و يتهادين أمام أرجو وخلفها ثم يتعلقن بها حتى لا تقذفها الأمواج وسط الدوامة العاتية ، ولما أوشك سكيلاّ على تدميرها والتهام بحارتها ضربنه على رءوسه الست ، فخاف غضب ربات البحر وعاد إلى كهفه مسرعاً ؛ فنجت السفينة من مخالبه وتابعت رحلتها حتى بلغت جزيرة اسخريا[1] (Scheria) التى كان يحكمها ألكينوس (Alcinous) ، ملك الفياكيس (Phaeáces) .

وكان ملكا كريماً يرحب بالأجانب ، ويقيم فى قصر فخم ضربت به الأمثال وتغنى هوميروس بثرائه ؛ ونزل بحارة الأرجو الجزيرة وذهبوا إلى هذا القصر الفاخر ، فوجدوا ألكينوس وزوجته أريتى (Aretê أى الفضيلة) يجلسان فى بهوه الفسيح ، فرحبا بهم وأكرما وفادتهم ، فأُعدت الموائد

(١) يقال إن هذا الشعب كان يسكن أول الأمر بالقرب من جبل أما موطن الكيكاوپس المتوحشين ، فلما أرهقهم هؤلاء الوحوش بغزواتهم اضطروا إلى الرحيل عن ديارهم واتخذوا جزيرة اسخريا وطنا لهم .

وقدمت لهم صنوف شهية من الطعام والنبيذ العطر ، ثم سألهم الملك من يكونون ومن تكون الفتاة التى معهم ؟ فقالوا نحن أبطال يولكوس ، وهذه ميديا إبنة أيئتيس ، صاحب الفروة الذهبية التى أحضرناها معنا ، فصمت الملك برهة ثم قال : « لو كان الأمر بيدى لقلت لكم أهلا وسهلا وافتخرت بإقامتكم فى قصرى ، لكن جنوداً من خولكس وصلوا هنا منذ أسابيع وما زالوا يقيمون فى قصرى ، ولقد علمت منهم أنهم اقتفوا أثركم وبحثوا عنكم فى عرض البحار فلم يعثروا عليكم وخافوا أن يرجعوا إلى بلادهم بدون ميديا ؛ ولما كنت لا أحب الحرب ولا أرضى أن تدور رحاها فى جزيرتى ، لذا سأفكر فى الأمر وأدعوكم وإياهم غدا لنجد حلا مناسبا » .

ولما أصبح الصبح دعاهم جميعا فوقفوا فى صفوف متقابلة ، ثم قال لهم الملك : « يا جنود أيئتيس ! ماذا تريدون من هؤلاء الأبطال ؟ » ، فرد قائدهم قائلا : « إننا نريد أخذ ميديا معنا لتلقى جزاءها ، لأننا إذا عدنا بدونها فالويل لنا والموت مصيرنا » . فنظر الملك إلى ياسون وسأله : « ما رأيك فيما قالوا يا ابن أيسون ؟ » . فأجاب البطل : « إنهم يطلبون شيئاً مستحيلا لأنهم لن يستطيعوا أخذ ميديا عنوة ، ميديا التى تعرف فنون السحر ، وتستطيع أن تلقى سفنهم فى قاع البحر أو تدفعها إلى البر وتقذف بها فوق الرمال ثم تهرب فى عربتها السحرية . . إذن فيم إرجاعها على الرغم منها ؟ ولِمَ يعودون إلى كولخس النائية ، ويتحملون مشقة الرحلة وأخطارها ؟ فكم

من أرض غنية ترحب بهم وتنتظر مقدمهم ؟ فعليهم أن ينزلوا بأى غابة على الشاطىء ويجتثوا أشجارها ويستعمروها ويتخذوها وطنا لهم » ؛ واقتنع القائد بكلامه فقال : « فليكن الأمر كذلك ! احتفظ أنت بميديا ، لقد كانت شرا علينا ، ووباء فى قصر أبيها ، وسوف تكون نذير شؤم عليك . فخذها إذن ما دمت لا تتعظ » ؛ فباركهم ألكينوس جميعا وقدم لهم الهدايا وزودهم بالمؤن وودعهم وداعاً حاراً . وأبحر أهل كولخس عبر الأدرياتيك وأسسوا المدن على شواطئه واتجه بحارة الأرجو إلى جزيرة كريت فى طريقهم إلى وطنهم العزيز .

ولما اقتربوا من تلك الجزيرة المشهورة ، قالوا : « سوف ننزل بها ، ونزور ملكها العادل ، مينوس ، لنقف على ثرائه العريض ونشاهد قصره الفخيم ، ولا شك أنه سيرحب بنا ويمدنا بالمال والمؤن » . ولكن سرعان ماتحطمت آمالهم عندما شاهدوا بالقرب من الشاطىء عملاقا ضخما أطول من شجرة الصنوبر ، وقف يجيل البصر هنا وهناك حتى لمح السفينة ومن فيها ، وعندئذ اندفع كالحصان الجامح وركض مسرعا حتى أصبح على مقربة من الساحل على بعد أمتار من المركب ، ثم أخذ يلوح بذراعيه ويصيح بصوت جهورى ويقول : « أيها القراصنة ، أيها اللصوص ! لا تنزلوا هنا ، فإن فعلتم فالموت لكم ! » ، ورد عليه البحارة بقولهم : « إننا أشراف لا قراصنة ، جئنا نطلب غذاء وماء . لكنه لم يستمع إليهم وأشاح بوجهه

ولوح بذراعه غاضبا منوعدا . وعندئذ رأى الأبطال سكان الجزيرة يجـرون ويدفعون القطعان أمامهم وشاهدوا ناراً حامية تندلع بين التلال ، ثم لاحظوا المارد يهبط الوادى مسرعا حتى غاب عن أبصارهم .

وكانت ميديا ترقب كل شىء وقد علت شفتيهـا ابتسامة ما كرة ، وظلت صامتة هادئة حتى احتفى العملاق ثم قالت : « لا تخافوا ! لقد سمعت فى بلدى عن هذا المارد المخيف ، لقد صنعه هيفايستوس ، إله النار ، فى أتونه بجبل إتنا وسماه تالوس (Talus) وأهداه لمينوس ، ملك كريت ، ليحرس شواطئها ؛ فهو لا ينام أبداً ، بل دائب الحركة ، يدور حول الجزيرة ثلاث مرات كل يوم ، فإذا لمح بعض الأجانب يقتربون من الشاطىء أو يفـكرون فى النزول إلى الجزيره ، اندفع إلى أتونه المشتعل بين التلال ، وظل فيه حتى يتوهج ناراً ثم ينطلق نحوهم و يرتمى عليهم ليحرقهم بيديه المتوهجتين » ؛ فسألها الأبطال : « و بماذا تنصحين ياميديا ! إننا سنهلك من الظمأ ولا بد لنا من الحصول على الماء » . فقالت . « إنى ذاهبة لمواجهته لأنى أعلم أن شريانا واحداً مملوءا بماء النار يجرى فى جسمه ، أحكم سداده بمسمار وسأحاول اكتشاف موضعه ؛ فإن وجدته نجحت فى مهمتى وحصلتم على حاجتـكم من الماء » .

فأطاعها البحارة وأنزلوها إلى الشاطىء ، وظلت واقفة حتى عاد المارد وقد أصبح جذوة متقدة يحرق العشب الذى يسير عليه ، و ينبعث الدخان من بين

قدميه . ولما اقترب من ميديا نظرت إليه فى جرأة وأخذت ترتل هذا النشيد ترتيلا : « ما أقصر الحياة وما أحلاها ! كلنا رائلون ، كلنا إلى فناء ، النار نفسها ستخمد ، والرجل النحاسى (نالوس) سيموت ؛ ما أقصر الحياة وما أحلاها ! لكن أحلى منها الخلود ، خلود الآلهة الذين يجرى فى عروقهم ماء الشباب فلا يعرفون الشيخوخة أبداً . فقاطعها تالوس قائلا : « من أنت أيتها الأجنبية ؛ وما هو ماء الشباب هذا ؟ » ، فأجابته وقد أمسكت بقنينة من البلور . « أنا ميديا الساحرة ، وها هو ماء الشباب ، أعطتنى إياه عمتى كركى(Circe) وأمرتنى أن آتى به إليك لأكافئك على ولائك الذى طبقت شهرته الآفاق . تعال إذن أصبه فى شرايينك حتى يكتب لك الخلود وتظل شابا على الدوام » . وصدقها المارد الساذج ونزل البحر كما طلبت وأطفأ ناره المشتعلة حتى لا يحرق أناملها الرقيقة ، ثم أراها المسمار الذى يسد شرايينه لتصب ماء الشباب ، فأخرجت المسمار ولم تسكب شيئا فى الشريان ، بل تركت ماء النار يتدفق منه كأنه سيل من الحمم فأدرك العملاق أنها خدعته ولكن بعد فوات الأوان ، لقد خارت قواه ، ثم فارقته الحياة . وعندئذ ضحكت ميديا وصاحت « تعالوا ، أيها الأبطال خذوا ما يكفيكم من الماء » . فنزلوا وزودوا سفينتهم بالمؤن ، ثم غادروا كريت وساروا فى البحر حتى وصلوا إلى رأس ماليا (Malea) فى جنوب البلوبونيز ؛ وهناك قدموا القرابين لزيوس وهيرا وسبحوا باسمهما ثم اتجهوا

شمالا ومروا بميناء سونيوم (Sunium) واخترقوا مضيق يوبويا (Euboea) وأخيرا عادوا إلى ميناء آفيتاى (Aphetai) فى تساليا التى بدأوا منها رحلتهم. وعندئذ وهب ياسون السفينة أرجو لإله البحر بوسيدون ، وتفرق الأبطال وذهب كل منهم إلى بلده واتجه ياسون ومعه ميديا إلى قصر عمه بلياس يحمل إليه الفروة الذهبية التى طلب إحضارها .

ولكن ياسون اكتشف أن أحداثا خطيرة قد وقعت أثناء غيابه ؛ لقد أصر بلياس على التخلص من أخيه أيسون فقتله ، وماتت زوجه حزنا عليه ، وهكذا فقد ياسون والديه ، فصمم على الانتقام من هذا الشرير المستبد ، ولجأ إلى ميديا يطلب إليها النصح والمساعدة ، فطمأنته ودبرت هذه الحيلة : أخبرت بنات بلياس أنها قادرة على إرجاع الشباب للشيوخ ، وبرهنت على ذلك بأن أخذت كبشا وقطعته إربا ووضعته فى قدر به ماء يغلى ثم أخذت تردد بعض التعاويذ السحرية ، وفى لمح البصر قفز من القدر حمل صغير ، كله نشاط وحيوية ، فآمنت بنات بلياس بمقدرتها الفائقة واقتنعن بفكرتها .. وأعطتهن ميديا شرابا منوما ، وطلبت إليهن أن يقدمنه لأبيهن ثم يقطعنه بأيديهن ويلقين أوصاله فى القدر ، ففعلن ذلك حتى يعدن الشباب إليه ، وانتظرت ميديا لتنطق بتعاويذها وتعيده إلى الحياة ، لكنها لم تفعل فأدركن أنها خدعتهن ودفعتهن إلى ارتكاب هذه الجريمة البشعة .

واضطر ياسون أن يهرب مع زوجته، ويغادر يولكوس ويذهب بها إلى كورينثه ، وهناك وجدا أصدقاءً رحبوا بهما فأقاما بينهم وعاشا عيشه راضية وأنجبا طفلين وقضيا فى هذا البلد الأمين عشر سنوات كلها سعادة وهناء ؛ ثم خان ياسون زوجته ، فأصرت على أن تنتقم منه أشد انتقام ؛ ولم لا ؟ .

لقد أحبته من كل قلبها،وأخلصت له إخلاصا عظيما؛ فمن أجله خانت أهلها وهجرت وطنها وذبحت أخاها؛ومن أجله خدعت بنات بلياس وقتلت أباهن ، فلا عجب أن اعتقدت أن ياسون سيخلص لها مدى الحياة ، ولن يتخلى عنها أبداً ، سيبقى إلى جانبها ينسيها ألم الاغتراب وعذاب الضمير ؛ لكنه غدر بها،فهجرها وتزوج من جلوكى (Glaucê) ابنة كريون (Creon) ملك كورينثه ،فجن جنونها وضاقت الدنيا بها ، وفكرت فى الانتحار لتنهى آلامها ، لكنها خلت إلى نفسها واسترجعت ماضيها وتذكرت جرائمها وارتجفت من بشاعتها وندمت على تهورها واستسلامها لتلك العاطفة التى أفقدتها رشدها ودفعت بها إلى الهاوية ؛ وبينما هى تستعيد هذه الذكريات المرة والأحداث المؤلمة إذا بياسون يدخل عليها فتنظر إليه فى صمت عميق ، فيقترب منها ولكنها كانت بعيدة عنه ، كانت تفكر فى حبها الفاشل وبؤسها القاتل.وبعد لحظة رهيبة قال ياسون : « لقد بذلت أقصى ما أستطيع من جهد لأقنع الملك بأنك لا تنوين بابنته شرا ولا تهددين بقتلها، وطلبت

إليه أن يعفو عنك و يستبدل الإعدام بالنفى ، وهأنذا جئت لأراك قبل رحيلك إذ ليس من شيمتى أن أتخلى عن أصدقائى وقت الشدائد؛ فإن كان يعوزك المال أو كنت فى حاجة إلى أى شىء آخر ، فأنا مستعد لتلبية رغباتك » . وهنا طفح الكيل وانفجرت ميديا قائلة : « يا لك من وغد وضيع ! لقد أحسنت صنعا بمجيئك ، فسوف أخفف همومى عندما أثبت لك وضاعتك ! لقد أنقذتك ، والعالم كله يعرف هذه الحقيقة؛ لقد أخضعت لك الثورين وخلصتك من الأشرار المسلحين الذين نبتوا من أسنان التنين ونجيتك من الأفعى ، ونصرتك نصراً مبينا ، وهجرت الأهل والوطن ، ورحلت إلى بلد ناءٍ غريب ، ثم انتقمت لك من أعدائك،ودبرت لبلياس أبشع ميته ؛ من أجلك فعلت كل ذلك ، ومن أجلك عاديت الجميع ؛ فإلى أين أذهب ؟ إلى قصر أبى؟أم إلى بنات بلياس اللاتى لم يكن بينى و بينهن خصومة ؟ لقد حسبتك زوجا مخلصا أمينا ، يستحق التقدير والإعجاب ؛ واليوم تحدثنى عن النفى . يا للسماء ! لقد أصبحت وحيدة ، لا أهل لى ولا أصدقاء ؛ ومع ذلك فلست فى حاجة إلى ذهبك أو معونتك ! » وعندئذ خرج ياسون غاضبا وهو يقول : يا لك من عنيدة متكبرة ! » .

وجلست ميديا تفكر فى الانتقام منه،فصممت على قتل زوجته الجديدة أولاً . وجاءت بثوب جميل وبللته بعطر مميت وعقاقير مُهلكه ثم وضعته فى صندوق وكلفت ولديها أن يحملاه و يقدماه لزوجة أبيهما ، وأمرتهما أن

يطلبا إليها أن تلبسه فى الحال دليلا على رضائها عن الهدية . واستقبلتهما جلوكى برقة وحنان واستجابت لطلبهما . وما أن ارتدت الثوب حتى اشتعل جسمها ناراً حامية وأصبحت رماداً فى لمح البصر . ولما صممت ميديا بالخبر فكرت فى مصير ابنيها ، وأدركت أنهما لن يجدا عطفاً من إنسان وأنهما سيتعرضان للمهانة والضيم ويصبحان خادمين ذليلين لذا صممت على « ألا تتركهما لمن يسىء معاملتهما أو يمعن فى إذلالهما » . وقالت : « لقد أعطيتهما الحياة وسوف أذيقهما كأس الموت . أياى والتردد ، فلأقدم على ذبحهما وان أفكر فى حبى لهما ، وسوف أنسى انى أمهما . سأنسى ذلك لحظة ثم أستسلم للأحزان على الدوام » . وعندما دخل عليها ياسون ليقتلها إنتقاما لزوجته ، وجد ولديه ذبيحين ورأى ميديا فى أعلى القصر تركب عجلة يجرها وحشان وتشق طريقها فى الفضاء ..

وعاد ياسون إلى يولكوس وبقى نهباً لآلامه . وقضى أيامه فى بؤس وشقاء . وذات مرة ذهب إلى شاطىء البحر ليروح عن نفسه ، واتجه إلى المكان الذى سبق ان ترك فيه السفينة «أرجو» ، وجلس ليستريح بجانبها ، فاذا بعمود يسقط منها يهشم رأسه ، وهكذا مات البطل تحت حطام سفينته .

مغامرات أوديسيوس

بعد مقاومة عنيفة دامت عشرة أعوام ، سقطت طروادة فى يد اليونان ، واحتفل هؤلاء بانتصارهم ثم أسرعوا فى العودة إلى أوطانهم . ولكن شاء الآلهة أن يعاقبوهم على ما ارتكبوه من إثم ليلة احتفالهم عندما انتهكوا حرمة المعابد فاغتصبوا النساء اللاتى اعتصمن بها ثم أشعلوا النار فيها ، فأغضبوا الآلهة خاصة أثينه التى ذهبت إلى پوسيدون وأثارته ضدهم وطلبت إليه « أن يثأر لها وأن يذيقهم العذاب أثناء عودتهم إلى أوطانهم ، فيملأ البحر أمواجاً وأنواء ويحطم سفنهم ويهلك منهم أعداداً » . وأجابها پوسيدون إلى ما طلبت ، فأرسل الصواعق وأطلق الرياح ، فهاجت البحار واضطربت واشتد الموج وطوح بأساطيل الإغريق فى عرض اليم وشتت شملهم ؛ فكاد أجاممنون أن يفقد سفائنه ، وغرق أياس (المعروف بأجاكس) ، وتحطمت سفن منيلاوس وألقت به العواصف إلى جزيرة فاروس بالقرب من شواطىء مصر ؛ أما أوديسيوس (Odysseus) فذاق الأمرين ، لقد قاسى الأهوال وضرب فى عرض البحر عشر سنين قبل أن يعود إلى وطنه حيث كانت تنتظره پنيلوپى (Penelope) زوجته الوفية ، وتليماخوس (Telemachus) ابنه الحبيب . ولاأرتيس (Laërtes) والده العزيز .

ولقد نظم شعراء اليونان عن « عودة هؤلاء الأبطال » (Nostoi)، قصائد عدة ، وصفوا فيها ما لا قوه من عناء ومشقة ،ولـكن لم يصلنا من هذه الأشعار إلا ملحمة هوميروس الخالدة التى تغنت بأوديسيوس ومجدته فأصبح مثلا للبحار اليونانى التائه ،قام بأعجب المخاطرات ، وجاب أخطر لبقاع ، وكاد أن يهلك لولا أن صفح عنه پوسيدون وعاونته أثينه .

ولقد روى هوميروس قصة هذا البطل وصورها أبرع تصوير فى الأوديسا ، فـكانت من أروع ملاحم اليونان الشعبية ، يحفظها أبناؤهم و يتغنى بها ملاحوهم ويرددها منشدوهم ؛ ولما كان المجال لا يتسع لسرد أحداث هذه القصة ووصف مناظرها كما وردت فى الملحمة الهومرية ، لذا رأينا أن نختار بعض فصولها ونعرضها بالتفصيل .

يبدأ الشاعر قصدته بالابتهال إلى ربات الشعر و يتوسل إليهن أن تلهمنه أروع المعانى وأعذب الألحان . ثم يصف لنا كيف ضل أوديسيوس طريقه فى عرض البحار وكيف تعرض للمصائب والأهوال ثم كيف رقت قلوب الآلهة له وكيف رثت لحاله أثينه وتوسلت بأبيها زيوس أن يدرك البطل برحمته و يرده إلى وطنه سالما ، فيستجيب أبوها لطلبه و يقضى بأن يعود ابن لا أرتيس إلى جزيره إيثاكا (Ithaca) ، مسقط رأسه ومقر حكمه حيث استولى فريق من الأدعياء على قصره منذ رحيله إلى طروادة وأخذوا يبددون ثروته ويضايقون ابنه وزوجته .

ثم يروى لنا هوميروس كيف هبطت أثينه من السماء واتخذت صورة صديق من أصدقاء أوديسيوس ودخلت القصر واقتربت من تليماخوس ونصحته بالذهاب إلى اسبرطه ليعرف أخبار أبيه من ملكها . ويستمع الفتى لها ويعمل بنصيحتها ، ويصل هناك ثم يذهب إلى قصر منيلاوس الذى يرحب به ويخبره أن سفائن أبيه قد تحطمت ، وأنه حل ضيفاً على عروس الماء كاليپسو (Calypso) فهامت به وأبقته بجانبها وما زال أسيرا فى جزيرتها لا تسمح له بالرحيل .

وبعدئذ يصف لنا الشاعر كيف استطاعت أثينه أن تصور للآلهه الآلام التى كان يقاسيها البطل بالقرب من هذه الحورية وكيف طلبت إلى أبيها أن ينقذه من الجزيرة الموحشة ويرجعه إلى بلده ؛ فيأمر زيوس ولده هرميس بأن يتوجه من الحال إلى كاليپسو ، ويطلب إليها أن تخلى سبيل البطل . وتطيع الحورية أمره وتسمح لأوديسيوس بالرحيل فيعد لنفسه زورقا ويودع عروس الماء الحزينة ؛ ولكن وآسفاه ! ما أن ابتعد عن الجزيرة حتى لمحه پوسيدون الذى أخذ يهز أعماق البحر حتى هاج وتلاطم بأمواج كالطود ، حطمت الزورق وتركت البطل يناضل الموت ويكافحه ، ثم قذفت به على شاطىء جزيرة اسخيرا (Scheira) التى يسكنها شعب الفياكس (Phaeaces) واستسلم لنوم هادىء عميق ، وهناك جاءت

ناوسيكا (Nausica) ابنة الملك ألـكينوس (Alcinous) مع وصيفاتها ليغسلن الثياب و يلعبن الـكرة ، فعلت ضحكاتهن ، وهب أوديسيوس مذعورا واتجه إليهن : فما أن رأينه حتى ولين خائفات إلا ناوسيكا ، فقد ظلت فى مكانها حتى اقترب منها وقال لها بلباقته المعهودة : « إننى أسجد أمامك ، أيتها الأميره ، وأنا لا أدرى إن كنت إلاهة خالدة أو سيدة فانية ، ولـكنى على أى حال لم أر مثلك من قبل ، إنى أتوسل إليك أن ترحمى بحاراً تحطمت سفينته ، وفقد أصدقاءه وكل مؤنه » ، فأعطته ثو با يرتديه وطلبت إليه أن يتبعها من بعيد وقالت : « إن الناس لا يكفون عن الكلام إذا رأوا معى رجلا وسيما مثلك ، بل سوف تذهب بهم الظنون ولـكنك تستطيع التعرف على قصر أبى لأنه رائع فخم ، فإذا بلغته أدخله ولا تتردد فى مقابلة أمى لأن كل ما تقوله يحوز القبول من أبى » .

ووصل أوديسيوس القصر ودخله فوجد به زعماء المدينة وشيوخها يأكلون ، و يشر بون ، فتقدم البطل بهدوء حتى اقترب من ألـكينوس وأريتى وحياهما ، فأذنا له بالجلوس وأكرما وفادته ، فأكل وارتوى ثم طلب إلى الملك أن يساعده فى العودة إلى وطنه ، فوعده الملك خيراً ودعاه أن يقضى الليل فى ضيافته ليستريح من عناء رحلته . وفى صبيحة اليوم التالى أصطحبه الملك إلى الشاطىء وأمر بأن تعد له أحسن

السفن وأن تختار له نخبة من أصلب الفتيان عوداً وأشدهم مراساً ليصحبوه حتى يعود إلى بلده سالما . ثم دعا ألكينوس شعبه إلى وليمة أقامها إكراماً لضيفه ، وحفلا رياضيا تخللته الأغاني الرخيمة والرقصات الرشيقة . وبعد أن فرغ القوم من لهوهم ، سأل الملك ضيفه عن اسمه وطلب إليه أن يحدثه عن وطنه ويصف له الأخطار التى تعرض لها ، فيقص له أوديسيوس أنباء رحلته منذ أن ترك طروادة بعد سقوطها حتى وصل جزيرة الفياكيس . ويروى لنا هوميروس فى أربعة أناشيد (٩ — ١٢) الأحداث التى مرت بالبطل ؛ فيحدثنا على لسانه عن مغامراته مع جماعة من المتوحشين يسمون السكيكونيس (Cicones) ، ويصف لنا كيف فقد بعض رفاقه عند أكلة اللوتس (Lotofagoi) وكيف فتك السكيكلوپس پوليفيموس (Polyphemus) ببعض رجاله ، وكيف احدقت به الأخطار فى جزيرة الساحرة كركى (Circe) ، ثم يصف لنا نزوله إلى العالم الآخر ليسأل شبح العراف تيريسياس (Teiresias) عن الصعوبات التى ستقابله قبل عودته ، ويصور لنا الهلاك الذى تهدده عند مروره بين خاريبديس وسكيلا ، والموت الذى لحق بنفر من بحارته فى جزيرة ثيران الشمس . وبعد أن يعرض هوميروس تفاصيل هذه المغامرات فى صورة قصة يرويها أوديسيوس على مسامع الملك وشعبه ، يصور لنا رحيله عن جزيرة الفياكيس وعودته إلى وطنه ، ويعتبر هذا الجزء من الأوديسا

أكثر إمتاعا لأنه يفيض باللوحات الشائقة والمناظر الساحرة ، ويمتلىء بالمواقف المثيرة والصور المخيفة التى رسمها الشاعر بأسلوب رائع رشيق. ومن أوصافه الممتعة تصويرة للجزيرة المنعزلة التى كانت تقيم بها حورية الماء كاليبسو ، وفيها يقول :

« وأرسل زيوس ابنه هرميس ليأمر هذه العاشقة أن تطلق سراح البطل ، فاندفع الرسول نحو الجزيرة ، يرف بين السماء والماء ويجوب الفضاء حتى بلغها ، وما برح يتنقل فى ربوعها حتى وصل الكهف الفسيح الذى تأوى إليه الحورية ذات الجدائل الجميلة ، فوجدها هناك ووجد عندها موقداً كبيراً تتأجج ناره وتنتشر منه رائحة الأرز والصندل العبقه وتملأ أرجاء الجزيرة، وكانت كاليبسو تغرد بصوتها العذب الرخيم وتعمل فى منسج أمامها تحركه فى سرعة فائقة . ولقد بسقت حول الكهف أشجار السرو العاطرة والحور والسنديان وفوق أغصانها اتخذت الطيور أوكارها ، وامتدت على جوانب الكهف أفنان الكروم مثقلة بالعناقيد وتفجرت عيون أربع بماء صاف ينساب بين الأعشاب النضرة والورود اليانعة . إنه لمنظر رائع يسحر الألباب ويبعث البهجة فى قلوب الأرباب الخالدين » .

وهذه لوحة أخرى تصور قصر ألكينوس الذى كان مضرب الأمثال فى فخامته ، وفيه هوميروس يقول :

« لما وصل أوديسيوس إلى هذا القصر، بهره لألاء كنور الشمس أو ضياء القمر ، ينعكس من أسوار مصفحة بالنحاس ومحاطة بسياج من اللازورد الأزرق ، وكانت بواباته من الذهب الخالص وعمده من الفضة ومدخله من النحاس ، وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من الذهب صاغها هيفايستوس بمهارة فائقة لتحرس قصر الملك العظيم ، وكان فى الداخل بهو فسيح صفت إلى جدرانه أرائك فوقها نمارق من نسيج ناعم رقيق . وهناك أقيمت على قواعد راسخة تماثيل من ذهب لصبية يحملون مشاعل تضىء البهو ليلا لجموع المدعوين؛ وخارج الساحة كانت تقع حديقة القصر تحيطها الأسوار من كل جانب ، بسقت فى جنباتها أشجار عالية مزهرة، فاكهتها دانية ، وثمارها جنية لا مقطوعة فى الصيف ولا ممنوعة فى الشتاء، تهب عليها دائما ريح الصبا تنبت بعضها وتشيع النضج فى البعض الآخر »..

تلك مناظر خلابة تمتع برؤيتها أوديسيوس أثناء رحلته ،وخففت من آلامه وأنسته بعض همومه فى لحظات اليأس وساعات الخطر الذى كان يحف به منذ أن ترك طرواده حتى وصل إلى أرض الفيا كيس .

وكانت أولى مغامراته مع شعب الكيكونيس الذين داهموا سفنه واشتبكوا مع رجاله وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فاضطر إلى مغادرة مدينتهم اسماروس (Ismarus) ، ودفعته العواصف العاتية وقذفت به إلى بلاد أكلة اللوتس ، فأرسل ثلاثة من رفاقه ليكتشفوا هذه الأرض ويتعرفوا ،

على أهلها ، فرحبوا بهم وأكرموهم وقدموا لهم طعاما كانوا يصنعونه من زهرة اللوتس ، وما أن أكلوه حتى نسوا أوطانهم ، ورغبوا فى البقاء معهم . وحاول أوديسيوس إقناعهم بالعودة معه ، لكنه فشل ولم يجد بداً من ربطهم بالحبال وجرهم إلى السفن وشدهم إلى مقاعدها[1] . وأبحر من هذه المنطقة واستمر فى رحلته حتى اقترب من الجزيرة التى يسكنها جماعة السكيكلوبيس ، العمالقة المتوحشين ذوى العين الواحدة المستديرة ، الذين لا يخافون الآلهة ولا يحترمون القوانين « ويسفكون دماء البشر ، وينهشون لحمهم ، رعاة قساة ، يفتكون بكل من ينزل أرضهم » .

وجنح أوديسيوس إلى الشاطىء وترك سفائنه ونزل مع أصدقائه إلى الجزيرة ، فرأوا أمامهم كهفا شامخا استرعى انتباههم . وتوجه إليه أوديسيوس مع اثنى عشر من رفاقه ، وحمل معه نبيذاً معطراً ليقدمه لمن يكرم وفادته

---

(١) أنظر قصيدة الشاعر الإنجليزى تنيسون Tennyson وعنوانها أكلة اللوتس « Lotos-eaters » التى يصف فيها تأثير طعام اللوتس على آكليه فيقول :

How sweet it were, hearing the downward stream
With half - shut eyes ever to seem
Falling asleep in a half - dream;
To dream and dream, like yonder amber light
To hear each others' whispered speech;
Eating the Lotos, day by day. . .

من أهل الجزيرة ، فلما اقتربوا من الكهف دخلوه ، فلم يجدوا به إنسانا ولكنهم أدركوا أن صاحبه يعيش فى يسر ورخاء لأنهم وجدوا عنده عشرات من الخراف والجداء وأوعية كثيرة امتلأت لبنا شهيا، وسلالا من الجبن الدسم ، فأكلوا وشربوا وانتظروا عودة الراعى الذى عله يزودهم بمؤن من عنده .

وعاد رب الدار ، فما أن رأوه حتى ارتعدت فرائصهم ، فقد كان بشع المنظر ، هائل الحجم . ودفع أغنامه داخل الكهف ثم أغلقه بكتلة من الحجر « يعجز عن جرها عشرات الخيول » ؛ ثم نظر حوله فلمح قوما غرباء ، فصاح فيهم قائلا : « من أنتم لتدخلوا دار پوليفيموس دون إذنه ؟ قوم من التجار أم جماعة من القرصان ؟ » ، فانعقد لسانهم من الخوف ، ولاذوا بالصمت . لكن اوديسيوس استجمع قواه ورد عليه قائلا : « إننا جنود حاربنا عند أسوار طرواده فى طريقنا إلى أرض الوطن ، هبت علينا العواصف والرياح وأغرقت سفننا ، فجئنا نتوسل إليك ونطالب إليك المساعدة باسم زيوس ، نصير الغرباء » . فقهقه الكيكلوپس وسخر من ذكر زيوس لأنه كان لا يكترث به ولا يخشاه . ومن هو زيوس بالنسبة له ؟ إنه أقوى من الآلهة جميعاً ، لا يخاف منهم أحداً . . ثم انتفض ومد ذراعيه الحديديتين وأمسك باثنين من رفاق أوديسيوس ، وحطم رأسهما والتهمهما فى لمح البصر ، وبعد أن تناول طعامه ، افترش الأرض ونام مطمئناً لأنه كان يعلم أن ضيوفه لا يستطيعون إزاحة الحجر .

وفى صبيحة اليوم التالى التهم رجلين آخرين ، ولم يبق منهما شيئاً . ثم أزاح الكتلة الهائلة ، وفتح الكهف وخرج بأغنامه ورد الحجر إلى مكانه . وبقى أوديسيوس مع بقية رفاقه ، وأخذ يفكر فى حيلة ليهرب من هذا السجن البغيض وحارسه الرهيب ، فطلب إلى أصدقائه أن يعدّوا من الخشب الموجود بالكهف عموداً ضخماً ذا نهاية حادة مدببة ويجففوه على لهب النار ثم يخفوه تحت القش حتى لا يراه بوليفيموس عند عودته . وعاد الكيكلوپس فى المساء ، وحلب أغنامه وأعد لها حظائرها ، ثم تناول عشاءه ، وأكل اثنين آخرين من اليونان . وعندئذ اقترب منه أوديسيوس وناوله قدحا من النبيذ وقال : « إليك بهذا النبيذ يا بوليفيموس ! ذقه واشرب منه حتى ترتوى » . فأفرغ الكأس فى حلقه دفعة واحدة ، وأبدى إعجابه بالشراب اللذيذ ، وطلب إلى البطل أن يملأ له كأساً بعد أخرى ، ووعد بأن لا يلتهمه إلا بعد زملائه ، مكافأة له على هديته . وسأله عن اسمه ، فأخبره أوديسيوس أنه يُدعى « لا أحد » (outis) . ونام الوحش نوماً عميقاً ، وحمل البطل ورفاقه العمود الخشبى ووضعوا نهايته فى النار حتى أصبحت كالجمر المشتعل ثم غرسوها فى عين بوليفيموس الوحيدة ، وأخذوا يدفعون العمود داخل مقلته دفعاً قوياً ، ويحركونه بسرعة حتى أفقدوه البصر . وصرخ الكيكلوپس من شدة الألم وهاج كالأسد ، وانطلق فى الكهف يبحث عن أوديسيوس ورفاقه ، فلم

يعثر عليهم لأنهم قبعوا فى ركن قصى من الكهف . وصاح پوليفيموس بصوت مرعب ينادى أبناء عشيرته الذين كانوا يسكنون بجوار مغارته ، فلبوا نداءه وأسرعوا إلى الكهف ووقفوا عند مدخله وسألوه : ماذا دهاك ؟ وما مصيبتك ؟ وفيم هذا الصراخ الذى أيقظنا من النوم ! » . فرد عليهم قائلا : أغيثونى يا رفاق ! إننى أكاد أموت من ضربة « لا أحد » القاضية ؛ فعجبوا من كلامه وقالوا : إن كان « لا أحد » أصابك ، إذن فهى ضربة زيوس القاصمة ، فعليك أن نتحملها . وانصرفوا إلى مساكنهم وتركوه يئن من الألم .

وفى الصباح أزاح الحجر وجلس عند باب الكهف باسطاً ذراعيه ليمسك بأعدائه عند خروجهم ، لكن أوديسيوس كان قد أمر أتباعه أن يقعد كل منهم فى سلة من البوص ويتعلق ببطن كبش من الكباش ويخرج بين كبشين آخرين ، وأخذ الكيكلوپس يلمس النعاج والكباش أثناء خروجها ويتحسس ظهورها ، ليقبض على أعدائه ، فلم يعثر على أحد منهم لأنه لم يتصور أنهم سيتعلقون ببطون أغنامه . وما أن خرجوا من السجن الرهيب حتى هرعوا إلى سفنهم وأقلعوا فى الحال . وعندما ابتعدوا قليلا عن الشاطىء صاح أوديسيوس قائلا : « أيا پوليفيموس ! لقد أنزل بك الآلهة عقابا صارما على الجرائم التى ارتكبتها ، واعلم ان أوديسيوس هو الذى سمل عينك » . ولما سمع الكيكلوپس ما قال ، انتزع صخرة

هائلة من سفح الجبل ورفعها عاليا وألقاها بكل قوته تجاه الصوت الذى ناداه، فاضطرب الموج إضطرابا شديداً ، وأوشكت سفينة أوديسيوس على الغرق، لكنه كافح حتى أنقذها بعد مشقة بالغة ، ثم انطلق مع زملائه فى عرض البحر . وتابعوا رحلتهم حتى بلغوا جزيرة الرياح التى يحكمها أيولوس ، ملكها وسيدها الأعلى، الذى بيده أن يثيرها وأن يخمدها وقتما يشاء. فاستقبلهم استقبالا حسنا وأكرمهم ثم أعطى أوديسيوس عند رحيله حقيبة من الجلد وضع بداخلها كل الرياح العاصفة وأحكم ربطها حتى يجنبهم أخطارها ، ثم أمر الرياح الموانية أن تدفعهم إلى أوطانهم . ومرت تسع ليال هادئة قطعوا فيها مرحلة طويلة ؛ ثم نام أوديسيوس من التعب . وتشاور رفاقه فيما بينهم ، واتفقوا على فتح الحقيبة ظنا منهم أنها مملوءة بكنوز من ذهب أهداها الملك الكريم لبطلهم . فما ان فتحوها ليأخذوا نصيبهم حتى انطلقت منها الرياح العاتية ، ودفعت السفن بعيداً عن مجراها وأعادتها إلى جزيرة أيولوس ؛ فغضب الملك من حماقتهم وتخلى عن مساعدتهم وتركهم يكدون ويكدحون ليعودوا أدراجهم .

ومازالوا يضربون صفحة اليم بمجاديفهم ويقاومون الرياح العاتية حتى وصلوا أرض اللايستريجونس (Laestrygones) فى صقلية ، وكانوا قوما متوحشين من أكلة اللحوم ، هاجموا سفنهم ، وانهالوا عليهم يقذفونهم بالأحجار ويصوبون إليهم سهاما تحمل الموت ، فدمروا السفائن ومن فيها ،

ولم تنج من هذه المعركة إلا سفينة أوديسيوس الذى فر هاربا هو ومن كان معه . ثم وصل إلى جزيرة أيّيا (Aeaea) التى كانت تسكنها الساحرة كركى (Circe) ابنة الشمس .

ونزل أوديسيوس إلى الشاطىء ، ووقف فوق ربوة عالية وأخذ يجيل البصر فى أرجاء الجزيرة ، فلاحظ أنها قد خلت من الناس ، لا يسكنها أحد ، وليس بها إلا قصر ضخم تحيط به أشجار باسقة . فأرسل جماعة من رفاقه ، يتقدمهم يوريلوخوس (Eurylochus) ليكتشفوا مجاهلها ، ويعرفوا سر هذا القصر . فلما اقتربوا منه وجدوا أنفسهم وسط أسود ونمور وذئاب مستأنسة ، روضتها كركى وأخضعتها لها بفضل فنون السحر التى تتقن استعمالها . وكانت هذه الحيوانات فى الأصل رجالا سحرتهم الساحرة ، وتركتهم على هذه الصورة حتى لا يرحلوا عن أرضها ، وسمع البحارة صوتاً عذبا حنوناً ينبعث من القصر ، فنادوا من فيه ، فخرجت لهم كركى ، ورحبت بهم ودعتهم ، فقبلوا دعوتها إلا رائدهم يوريلوخوس ، فقد توجس خيفة وامتنع عن الدخول . وذهبت الساحرة بضيوفها إلى بهو عظيم ، وقدمت لهم طعاما شهياً ونبيذاً معطراً ، ولما شبعوا وارتووا ، مستهم بعصاها ، فصاروا خنازير يحتفظون بعقولهم ويشعرون بحالتهم المخزية ولا يملكون من أمرهم شيئاً ، ثم دفعتهم إلى حظائرهم وحبستهم بها . وشاهد الرائد ما حدث ، فأسرع إلى السفينة ، وانبأ أوديسيوس بالخبر ، فصمم البطل على إنقاذ

بحارته ، واتجه بنفسه إلى القصر . وقابله فى الطريق هرميس ، بن زيوس ، وحذره من كركى وخطورة سحرها ، ثم أعطاه عشباً ، وأمره أن يحتفظ به ليحميه من كيدها وطمأنه قائلاً : « لا تخف كركى ، ولا تخش سحرها ؛ كل واشرب عندها ولن يصيبك شىء ما دام العشب معك , و إن لم تطلق سراح رفاقك ، امتشق سيفك وهدد بتطويح رأسها » . فتقبل أوديسيوس هديته وشكره على نصيحته ،وذهب إلى القصر ، فأستقبلته الساحرة استقبالاً رقيقاً ، كما استقبلت أصدقاءه من قبل . و بعد أن انتهى من تناول طعامه ، مسته بعصاها وقالت : « والآن ابحث عن حظيرتك والحق بأصدقائك » ، ولكنه رفض واستل حسامه واندفع نحوها غاضباً ، فارتمت عند قدميه ، وتوسلت إليه أن يرأف بها ، فعفا عنها وطلب إليها أن تعد بإرجاع زملائه إلى سيرتهم الأولى ، وتكف عن إيذائهم و إيذائه وتكرم وفادتهم ، وتتركهم ليعودوا إلى أوطانهم سالمين ؛ فأقسمت أنها لاشك فاعلة . وكانت صادقة فى وعدها ، فأرجعت البحارة إلى صورتهم الطبيعية ، وأرسلت فى طلب الآخرين الذين كانوا فى السفينة وسمحت لهم بالإقامة فى قصرها واغدقت عليهم جزيل النعم و بالغت فى إكرامهم ، فاستهوتهم حياة القصور الناعمة وأحبوا التمتع بها بجانب الساحرة ، ولم يعد أوديسيوس يفكر فى العودة إلى إيثاكا . ولما طالت إقامتهم بدأ البحارة يذكرون البطل بالأهل والخلان ، و يستثيرون شوقه وحنينه و يدفعونه إلى ترك الجزيرة والرحيل إلى الوطن ،

فأجاب طلبهم . وقدزودتهم كركى بشتى المؤن وحذرتهم من السيرينيس (Seirenes)، وعلمت أوديسيوس كيف يتجنب إغراءهم و يدرأ عن البحارة خطرهن ، ويمنعهم من سماع أصواتهم الساحرة وأرشدته إلى النجاة من الهلاك الذى يتهددهم عند خاريبدس وسكيلا ، وطلبت إلى أوديسيوس أن ينزل إلى هاديس ليقابل شبح العراف تيريسياس ، ليعرف منه الأخطار الأخرى التى قد تصادفه . و بادر أوديسيوس بالذهاب إلى عالم الموتى وهناك سأل العراف عن مصيره ، فطمأنه وأكد له أنه سيعود إلى إيثاكا سالماً، أما بقية رفاقه فسوف يهلكون فى جزيرة ثريناكيا (Thrinacia) حيث كانت ترعى ثيران الشمس (Hyperion)[١]، ونصحه العراف ألا يقرب هذه الماشية وألا يلحق بها هو ورفاقه أى أذى و إلا هلكوا بعيداً عن أوطانهم .

ولما انتهى العراف من كلامه ، نظر أوديسيوس فوجد حوله أشباح كثير من أصدقائه الذين ماتوا عند أسوار طروادة ، ورأى أيضا شبح آمه التى كانت على قيد الحياة عندما ذهب إلى الحرب ، فاقترب منها ودار بينهما هذا الحديث البديع :

« أى بنى كيف جئت إلى هذه الدار المظلمه وانت ماتزال حيا ؟ إنه لمن الصعب على البشر رؤية العالم الآخر ، إذ تفصلهم عنه أنهار عظيمة

(١) وهو أبو هليوس ، إله الشمس وكان عملاقاً (Titan) أطاح أپوللون بعرشه .

وسيول جارفه مخيفة ، والمحيط الأعظم الذى لا يستطيع أحد أن يعبره دون فلك متين . أواه ! هل ضربت فى عرض البحار بزورقك كل هذا الوقت الطويل حتى جئت هنا ؟ أو لم تصل إلى إيثاكا بعد ؟ أولم تر زوجتك حتى الآن ؟ » .

ولما سكتت ، قال لها : « أماه ! لقد جئت مضطراً إلى العالم السفلى ، جئت لأستشير روح العراف تيريسياس : إننى لم اقترب بعد من وطنى ، ولم نطأ قدماى أرضه ، ومازلت هائما على وجهى نهباً الأحزان منذ توجهت مع أجا ممنون العظيم للقاء أبناء طرواده . ولكن أخبرينى ولاتخفى على شيئا . أى قضاء أودى بحياتك ؟ هل طال بك المرض ؟ أم أصابك سهم من أرتميس ؟ حدثينى عن أبى وعن ولدى الذى تركت ! هل مازال فى أيديهما السلطان ؟ أم انتزعه منهما أحد ؟ هل يئس القوم من أوبتى ؟ خبرينى عن حال زوجتى . ألا تزال تعيش مع ولدنا وتحافظ على ثروتنا ؟ أم تزوجت أحد النبلاء ؟ » .

ولما انتهى ، أجابته أمه قائلة : « لا يابنى ! إنها ما تزال وفية لك تقيم فى قصرك ، تقضى الأيام والليالى فى النحيب والبكاء . أما ملكك العريض فلم يستول عليه أحد ، وما فتأ ابنك يتولاه ، وما زال أبوك فى الريف لاينزل إلى المدينة ، إنه لاينام على الأرائك ولا يستعمل الأغطية

والوسائد ، وحتى فى الشتاء يفترش الثرى مع الخدم بالقرب من المدفئة ، يلبس ثياباً بالية ، فاذا جاء الصيف والخريف كان فراشه من أوراق الشجر ينام عليه ، تنتابه الأحزان وتقض مضجعه الآلام ينتظر عودتك رغم شيخوخته المصية . وهكذا قضيت أنا الأخرى وانتهت أيامى ، فلا أرتميس رمتنى بسهم من سهامها ولا أصابنى داء أنهك بدنى وأفنى حياتى ؛ لا يا بنىّ ! إنه الحزن والهم ، إنه الوجد والشوق إليك ؛ إن هذه جميعا هى التى حرمتنى الحياة الحلوة » .

ولما سكتت عن الكلام أراد أن يضمها إليه فاندفع نحوها ليمسك بها . ولكنها انفلتت من بين يديه كحلم سار أو ظل مبتعد ؛ فامتلأ قلبه حزنا وناداها بصوت مرتفع قائلا : « لماذا يا أماه . ترفضين عناقى الذى أتحرق إليه شوقا لكى نتبادل القبل ونستسلم للنحيب والبكاء ؟ أم يا ترى أرسلت إلىّ ربة هذه الدياجير شبحا يضاعف همومى وآلامى ؟ » .

فردت عليه وقالت : « أواه يابنى ! يا أتعس الناس أجمعين ! ما حاولت إلاهة الموتى أن تخدعك أبداً . ولكنها سنة البشر : إذا ماتوا لم يبق منهم لحم أو عظم أو عضل لأن النار الحامية تلتهم أبدانهم عندما تفارقهم الحياة وتصعد أرواحهم ؛ فعجل بالخروج من هنا . واذكر ما سمعت منى وقله لزوجتك » [1] .

(١) هوميروس : الأوديسا : ١١ : ١٦٣٠ ومابعده .

و بعد الانتهاء من هذا الحديث المؤثر ، صعد البطل من العالم السفلى وذهب إلى سفينته . وأخذ يفكر فيما قاله العراف وتذكر نصيحته ، فقرر ألا يتوقف عند جزيرة ترينا كيا . لكن أتباعه ألحوا عليه ليأذن لهم بالراحة فيها والتريض على شاطئها ، فأجابهم إلى طلبهم وأمرهم ألا يقربوا شيئاً من القطيع المقدس ، وأن يكتفوا بالمؤن التى أحضروها من قصر كركى ؛ فأقسموا أنهم لن يمسوها ؛ ولكن حدث أن هبت رياح عاصفة عاقتهم عن الرحيل . ومضت أيام وأيام ولم تسكن العواصف ولم يهدأ البحر ، ونفدت المؤن وشعر البحارة بالجوع ، فأضطروا إلى ذبح عدد من الثيران ليأكلوا لحمها . ولما علم أوديسيوس بذلك استولى عليه خوف عظيم لأنه كان يعرف عاقبة جرمهم . فلما سكنت الرياح ، أبحروا من الجزيرة ولكنهم لم يبعدوا عنها إلا قليلا حتى اضطرب الجو واكفهرت السماء ، فلمع البرق وقصف الرعد ونزلت على السفينة صاعقة حطمت صاريها ودمرت مقاعدها وجوانبها وأهلكت كل من فيها ، ولم ينجُ إلا أوديسيوس الذى تعلق بلوح خشبى من حطامها ، حمله بعد أن هدأت العاصفة إلى جزيرة كاليبسو حيث قضى عدة أعوام ، ثم أمر زيوس هذه الحورية أن تطلق سراحه ؛ فركب البحر وصارع الموج وكافح كفاحاً مريراً حتى وصل إلى أرض ألكينوس .

وهكذا انتهت قصة البطل التى رواها على مسامع الملك وشعبه، فتأثروا لسماعها وأكدوا له أنهم لن يتركوه حتى يرجع إلى بلده سالما . وأمرهم ألكينوس أن يعدوا له سفينة وأن يقدموا له الهدايا النفيسة وأن يبحروا معه حتى يصل إيثاكا ؛ وركب أوديسيوس معهم ونام نوما عميقاهادئا . ولما بلغوا شاطىء جزيرته ، حمله مرافقوه وأنزلوه إلى البر وتركوه نائما ، وعادوا من حيث أتوا . فلما استيقظ أوديسيوس لم يستطع أن يتعرف على معالم مملكته حتى اقترب منه شاب وسيم وأخبره أنه فى إيثاكا التى غاب عنها عشرين عاما .

وهكذا انتهت مغامرات أوديسيوس وإن لم تنته متاعبه ، إذ كان عليه أن يتخلص من الأدعياء الذين استولوا على قصره وعبثوا بثروته. ولقدوصف هوميروس مراحل الصراع بين البطل وأعدائه وشرح لنا كيف انتصر عليهم بمعاونة الربة أثينه التى تجلت له فى صورة حسناء فاتنه ، ونصحته أن يصبر ويتحمل ما قد يصيبه من مكروه ثم غيرت صورته ودثرته بثياب بالية حتى لا يعرفه أحد ، وأخبرته أن يذهب إلى يومايوس ، راعيه الأمين ، ويقيم عنده حتى تعود الإلاهة بابنه تليماخوس. فاتجه الوالد إلى الراعى وهناك حضر إليه ابنه ، فكشف له الأب عن شخصيته وقص عليه قصته ، وأخبره أنه تنكر فى هذه الأسمال حتى يستعين على أمره بالكتمان ، وطلب إليه ألا

يخبر أحداً بعودته ، وأمره أن يذهب إلى القصر و ينتظره حتى يلحق به مع يومايوس ، وانصرف تليماخوس وذهب إلى أمه ، وأخبرها بأنباء رحلته التى كان قد قام بها ليعرف أخبار أبيه ، وأقبل الراعى ومعه البطل فى صورة شحاذ فقير وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ابنه شيئا من اللحم والخبز ثم أشار إليه بالدخول ؛ فسار بين الأمراء وسألهم أن يتصدقوا عليه ، فرثوا لحاله وناولوه قطعا من الشواء وشيئا من الطعام ثم خرج المسكين وجلس عند باب القصر حيث كان من قبل .

وعندئذ ظهرت پنيلوپى بين العشاق فرآها زوجها تتحدث إليهم عن سعادتها الماضية مع حبيبها أوديسيوس، وتندب حظها لغيابه الطويل وتعبر عن غضبها لوجود هؤلاء الأدعياء ، وتؤنبهم لإقامتهم فى قصرها وتأمرهم بالرحيل عنه. ولكنهم انصرفوا ليعودوا إليها بهدايا الزواج، فانسحبت پنيلوپى إلى غرفتها وتركتهم يلهون و يغنون . وأقبل الليل ، فأخذوا يضحكون و يسخرون من الشحاذ الفقير ، ولكنه رد على الإهانة بمثلها ، فأرادوا أن يطردوه لولا أن منعهم تليماخوس وأمرهم أن يتركوه فى القصر ، وأن يذهبوا من فورهم إلى بيوتهم فأطاعوه وانصرفوا . وهكذا خلا الجو للبطل وابنه ، فأخفيا أسلحة الأدعياء ثم آوى كل منهما إلى فراشه . لكن أوديسيوس لم ينم وأخذ يفكر فيما عسى أن يأتيه به الغد من أحداث . وعندئذ تجلت له أثينه فطمأنته

وأكدت له أنه سينتصر على خصومه ، وفى الصباح توسل البطل إلى ريوس أن يجيئه بآية لتشد من أزره ، فاستجاب لندائه . وسرعان ما اكفهرت السماء وعصفت الريح ووقف العراف ثيوكليمينوس (Theoclymenus) وسط العشاق وأنذرهم بسوء العاقبة وتنبأ لهم بهلاك قريب .

و بعدئذ أحضرت پنيلو پى قوس أوديسيوس الهائلة وقدمتها إليهم وقالت : « أيكم يرمى بها سهما سيكون زوجاً لى » ، فقبلوا الشرط ثم أخذوا يجربون حظهم الواحد تلو الآخر ولكنهم أخفقوا جميعا حتى يوريماخوس (Eurymachus) ، فلقد أبت القوس أن تلين فى يده، فلما بلغ منه الجهد ألقى بها يائسا وقال :

« العار لى ولكم . إننا دون أوديسيوس قوة ، ولا نستطيع أن نشد قوسه » . وعندئذ تقدم البطل وهو متنكر فى أسماله البالية وقال : «أرجوكم أن تعطونى هذه القوس لأجرب قوتى وأرى هل مازالت تجرى فى عروقى حيوية الشباب الدافقة أم أن بؤس الحياة ومتاعبها قد قضت عليها إلى الأبد » . وثار القوم وتعالى صياحهم، فسبوا الشحاذ وفكروا فى طرده، لكن پنيلو پى أصرت على أن يحاول ما حاولوا ، وتقدم أوديسيوس وأخذ القوس و بدأ يفحصها ، وكانت ضربة قاصمة للأدعياء الذين زاغت أبصارهم وامتقعت وجوههم ، عندما التقط الشحاذ سهماً وثبته فى القوس وأرسله بقوة ، فانطلق

دون أن ينحرف ، وأصاب الهدف . وحانت ساعة الانتقام ، فألقى البطل أسماله وكشف عن شخصيته وتناول قوسه وجعبته ثم قال لأعدائه : « أيها الكلاب! لقد ظننتم أننى لن أعود من طروادة أبداً فاستبحتم لأنفسكم نهب بيتى واعتديتم على نساء قصرى وحاولتم إغراء زوجى ، لا تخافون غضب الآلهة ولا انتقام البشر ، فالويل لكم ! لقد حان أجلكم » . ثم أخذ يسدد سهامه إلى صدور أعدائه حتى قضى عليهم واحداً بعد الآخر . ولما عرف أهل إيثاكا ما حل بالعشاق من نكبة على يد مالكها ، هرعت جموع أقاربهم إلى قصره وتشاوروا فى الأمر ، فرأى بعضهم أن يقاتلوا أوديسيوس وينتقموا منه . لكن أثينه مضت إلى أبيها زيوس وسألته « ماذا تضمر فى نفسك يا أبتاه ؟ هل تبغى إشعال الحرب وإضرام لهيبها ؟ أم تريد التوفيق بين الفريقين وتحب السلام لإيثاكا ؟» . فرد عليها قائلا : « الآن وقد انتقم أوديسيوس لنفسه دعايه أن يحكم الجزيرة كلها ، وعلينا أن نمن على أعدائه بالصبر والسلوان ، ونولد المحبة فى قلوبهم ليسود السلام بينهم وتزدهر حالهم وتزيد أموالهم[1] » .

---

(١) لذا يرى بعض النقاد المحدثين أن أوديسيوس كان بالفعل ملكا لجزيرة إيثاكا فى عصر ازدهار الحضارة الموكينية ، حكمها بعد أن تنازل له عن العرش أبوه لاأرتيس الذى كان ينحدر من أسرة معمورة ، لاحظ لها من الشهرة ولانصيب لها من المجد التالد الذى كانت تفتخر به كثير من الأسر اليونانية القديمة ، لذلك رأى أن يتخلى عن الحكم لابنه الذى لمع اسمه فى ريعان الشباب ؛ فترك لاأرتيس قصره فى العاصمة وأقام فى الريف . وكانت إيثاكا إحدى جزر البحر الأيونى (جنوب الأدرياتيكى) ، يحيط بها عدد من الجزر الصغيرة ويحكمها أمراء مشاغبون ، انتهزوا رحيل أوديسيوس إلى =

وحلقت أثينه فى الفضاء وطارت إلى إيثاكا وبدت لأهلها فى صورة صديق من أصدقاء أوديسيوس وهتفت بهم وبملكهم قائلة : « إجنحوا إلى السلم ، أيها المواطنون ، وضعوا حداً للخصومة بينكم حتى لا تغضبوا سيد

= طروادة ، واستغلوا غيابه عن إيثاكا وطمعوا فى ثروته وتنافسوا فى التودد إلى بنلوبى ، واتفقوا على أن تزوج من تختاره من بينهم ، ولكنهم لم يستطيعوا إغراءها لأنها كانت وفية لزوجها المخلص الذى لم تشغله عنها ربة أو حورية أو غادة فاتنة . فلما عاد أوديسيوس إلى إيثاكا ، أعلن الحرب على هؤلاء الأمراء الخونة الذين كانوا قد نسوا أن هذا البطل رحل عن بلده وابتعد عن أهله دفاعاً عن الوطن الأكبر ، بينما بقوا هم فى بلادهم لأنهم أعفوا من الاشتراك فى الحرب لصغر سنهم ، فكان حرياً بهم وهم يتمتعون بحياة السلم أن يحافظوا على عرش أوديسيوس ويحترموا أسرته تقديراً لتضحيته من أجلهم ومن أجل اليونان جميعاً ، لكنهم كانوا من الأوغاد ، فاستحقوا الموت الذى أذاقهم كئوسه عندما استأصل شأفتهم . ويرى آخرون أن هؤلاء الأمراء كانوا رعايا أوديسيوس الذين يحكمون بعض الجزر الصغيرة ويدينون له بالطاعـــة باعتباره الحاكم المطلق ، ولما غاب عن مقر الحكم ، تمردوا على زوجـــه واستخفوا بابنه ، وأخذوا يبددون ثروته رغبة فى التخلص من استبداده . وهذا ما حدث بالفعل فى القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد فى بلاد اليونان كلها عندما بدأ صغار الأمراء يتمردون على الملوك ويطيحون بعروشهم . ويتبيّن ذلك من موقف أوديسيوس من ترسيتيس أحد الدهماء الذى هاجم أجاممنون ، ملك الملوك . فما أن سمعه أوديسيوس ينتقد الملك ويسخر منه حتى أنبه بألفاظ لاذعـــة ونهره قائلا : « عد إلى السكوت وحذار أن تعارض الملوك ؛ إنك أحط من جاءوا إلى طروادة » ، ثم ضربه بعصاه على صدره وظهره . ولعله فعل ذلك خوفاً على ملكه ، ورغبـــة منه فى إخماد الثورة التى أخذت تزلزل عروش الملوك وتطيح بهم ، أنظر : Severyns (A) : *Homère, l'artiste*, p. 79 et suiv.

الأرباب » . فاستجابوا لندائها وتعاهدوا على الود والإخاء. وعاد أوديسيوس إلى قصره ، وقضى أيامه في راحة وهناء[1] ، يدين له الشعب بالحب والولاء .

(١) ولو أن الشاعر تنيسون (Tennyson) في قصيدته (Ulysses) صور اوديسيوس وقد سئم حياة الهدوء وعاوده الحنين إلى مغامرات جديدة فنراه يقول لأصدقائه :

Come my friends. 'Tis not too late to seek a newer world. . .

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

تصويب الأخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٤	تتميز ... من	تتميز ... عن
٩	٧	دفايستوس	هيفايستوس
١٠	٣	اله الشهوة	إله الشهوة
١٤	١٣	مرور السهم	مروق السهم
٢٧	٢	عده بالتضحية	عده بالنصيحة
٣٤	٧	لم تنس	لم ينسوا
٤١	١٤	أليمبوس	أوليمبوس
٤٧	١٣	هناك الحب	هناك الحب (Eros)
٤٧	١٦	فكان أول	فكان أورانوس ، إله السماء ، هو أول
٥٤	١	التى	هى التى
٥٤	٩	أحدها	إحداها
٥٤	هامش	والأمير	والأخير
٥٧	١٤	جنح الخيال	جمح الخيال
٦٧	١	إثا كا	إيثاكا
٧٢	١٣	ملكية	ملكة
٧٧	٢	وارتفع	وارتفع المعبد
٨٧	١٥	Phoibus	Phoebus
١٠٢	١٠	ابوللون	إلى أبوللون
١١١	١٤	فهذه اثر	فهذا أثر
١٢١	١١	كيداليون نا	كيداليون
١٢٩	٣	قربا	قرباناً
١٣١	٣	من فيها	ومن فيها
١٥٣	٥	صمتت	صممت
١٥٦	١١	من	قد

Magnesia
Samos
Priene
Icaria
Miletus
CARIA
DELOS
CYCLADES
Seriphos
Naxos
PAROS
Halicarnassus
LYCIA
Amorgos
SPORADES
Melos
MELOS
Ios
Rhodus
Ialysus
RHODUS
Lindus
Thera
DODECANESUS
Telos
Carpathus
Mochlos
Palaiokastro
Ida +
CNOSSUS
Dicte +
Gortyna
CRETA
Hagia Triada
Phaestus

GRAECIA

Abdullatif Ahmed Aly
1958-59
Faculty of Arts. Univ. of Cairo


مطبعة لجنة البيان العربي